

المكتبة الثقافية
فى الأصول الأولى
للرواية العربية
...روق خورشيد

المكتبة الثقافية
(٤٨٥)

فى الأصول الأولى للرّواية العربيّة

فاروق خورشيد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

اهــداء

الى الراحل العزيز
الصديق الكريم الدكتور عبد العزيز الدالى
تحيـــة
لسنوات العمر التى قضيناها معا فى رحــاب
العلم والمعرفة ، والمحبة النقية .
وداعا والى لقاء

[فاروق خورشيد]

أولا :

مقـــدمة

١ ـ الدارسون والقصة العربية

٢ ـ القصة العربية

٣ ـ الاسلام والرواية

١ ـ الدارسون والقصة العربية

وقع كثير من الدارسين العرب فى مطلع النهضة فى خطأ اعتبار الأشكال الدرامية المختلفة للأدب أشكالا وافدة مع معالم الحضارة الغربية والفكر الغربى الذى بدأت أمتنا تتصل وتتأثر به بشكل أو بآخر . واندرج تحت هذا الخطأ أدب المسرح ومعه أدب الرواية وأدب القصة القصيرة بل وأدب المقال أيضا (١) .

وانطلقوا من مقولة أن هذه الألوان من التعبير الأدبى لم يعرفها العرب قبل اتصالهم بالأدب الأوروبى بلغاته المختلفة ، وبدأت حركة

الترجمة تغرق أسواق الطباعة العربية بالأعمال المترجمة والمقتبسة ، كما بدأت حركة الاقتباس تغرق المسرح المصرى والعربى بالأعمال المسرحية المحورة ممصرة كانت أم معربة لبيئة محليــة ، أو أخرى ، وبعامية محلية أو أخرى أيضا(٢) ۰ ويسرت هذه الأعمال المترجمة والمقتبسة ، كمــا يسرت النهضة التعليمية التى سهلت على المثقفين العرب قراءة الأعمال الأدبية بلغاتها ، ويسرت أيضا رحلات أصحاب القدرة على الارتحــال الى أوروبا لحضور عروضها ومعارضها والالتحــاق بجامعاتها ، ويسرت حــركة استقدام الفــرق الأجنبية لدور العرض الحديثــة فى العــواصم العربية ۰

كل هذه العوامل فتحت المجــال أمام مبدعين جــدد يقلدون ويحــاكون ويقــدمون أعمالهم الأدبية على هــذا النســق الفنى الذى ساد عالم الغرب فى جيلهم ۰ ووجد أصحاب المقولة الخاطئة دليلهم فى هذه الأعمــال الأدبيــة التى تأثرت

بأنماط التعبير الجـــديدة فى عصرهم ، والتى تتبع مدرسة تعبيرية أو أخرى فى فنون القــول المختلفة .

وأصبحت الحركة الأدبية جزءا من حـــركة التحديث والتغريب التى أولع بها أعلام النهضة فى نهايات القرن الفائت وأوائل هذا القرن ، وحتى بعد تجاوز أواسطه .

وسر خطأ المقولة أنها سلمت بوضع ثقــافى وفكرى متدهور أصاب البلاد العربية ، وســاد فكرها ، وسيطر على عقول رجالهــا ، وجعلهــا منصرفة عن مواصلة حمل شعلة الفكر والابداع الذى أثرى أدبها وفكـــرها عــلى مر القــرون ، والذى أثر بدوره بشكل أو بآخــر فى بدايات النهضة الغربية ويسر لها جذورا تقيم عليهـــا بناءها الحضارى وبخاصة فى مجالات الفـــكر والابداع الأدبى .

فمنذ الاحتلال العثمانى للمنطقة العربيـــة

ودخول السلطان سليم الى مصر ، أخليت هـذه المنطقة من مبدعيها ومفكريها ، ورحلوا جميعا الى عاصمة العثمانيين ، كما رحل رجال الاحتلال العثمانى ولاة على أجزاء المنطقة مهمتهم الدائمة أن تكون هـذه المنـاطق موردا طيبـا للمـال والثروة ، وأن تكون فى حال تخلف دائم لا يفرز الا أنمـاط البـاحثين عن اليـوم ومتطلباته ، والغارقين فى الخروج من مأزق الجوع اليومى ، باكتناز الثروات التى تعين على مواجهة الغـد المجهول ٠

ومن هـذا المنطلق غـدا المجتمـع فى حال استمرار يومى ، لا فى حال وجـود حضـارى يعاصر العالم من حوله ، أو يواكب حتى مايحدث فى بلاد الخلافة العثمانيـة ذاتهـا ٠ وتقـاسم العثمانيون والمماليك حـكم المنطقـة ، وهمهم الأول ابتزاز الثروات وقمع كل بادرة تؤدى الى ارتفاع أى صـوت يكشـف حال التردى التى غرقت فيها المجتمعات العربيـة فى ظل هـذا

الاستنزاف الدائم • واستسلمت شعوب المنطقة لحال من اليأس يغلفه الجهل الناجم عن الحصار الثقافى والاجتماعى المفروض عليها ، ويؤكده تغير مفهوم الفكر والثقافة عموما ، وتزوير معنى العلم والأدب خصوصا •

ووجد الحاكمون الدخلاء فرصتهم فى نقل التراث العربى الى التركية وحجب المعالم الحقيقية منه عن الناس ، وتقديم البدائل فى صورة مختلفة تزيد الناس ابتعادا عن تاريخهم وموروثهم • فغدا العلم استنساخ كتب من التى يدرسها المتعلمون فى حلقات الدرس ، والتعليق والشرح والحواشى التى تزيد هذه الكتب عقما وتزيد تكبيل عقل المتلقى بمجموعة من المحفوظات الجاهزة التى تبعده عن التفكير وتغلق أمامه كل طرق الرؤية أو الاكتشاف •

وانحرف العطاء الفكرى الى صورة من الغيبيات حين انتشرت الطرق الصوفية تقدم أحلام التفوق والعودة الى السماء والتخلى عن

الدنيا والرضاء بما حم من قضاء وانتظار الخلاص في الحصول على المراتب العليا فى الجنة الى جوار الصديقين والشهداء ·

وأخذت هذه الطرق ذات الأعلام الملونة والسيوف الخشبية ورماح الجريد مكان الصدارة فى فكر الخاصة والعامة على السواء ، وصارت جلسات الذكر بطقوسها واذكارها ورقصاتها وأغانيها هى البديل لكل جهد فنى موروث · وحلت حكايات الصوفيين الكبار ، الذين يسيرون على الماء ويطيرون في الهواء ويأكلون مع مريديهم من اناء لا ينفد ما فيه أبدا ، محل الابداع المسرحى والقصصى والروائى على السواء ·

وظهرت الممارسات الوثنية متمثلة فى الزار وزيارة الأضرحة والاهتمام بالاحتفال بالأعياد فى المقابر ، والعناية باقامة مولد من مات من هؤلاء المتصوفة وأصحاب الطرق ، وأقيمت لهم أضرحة أخذت قداسة وثنية غربية · وصارت

الممارسات التى تتم فى هــذه المناسـبات كل ما تبقى من معالم المتعة الفنية بشكل أو بآخـر فى حياة أبناء هذا الشعب العربى الذى انقطعت صلته بماضيه ، كما انقطعت صلته بحاضره ، وأريـد له أن تنقطـع صـلته تمـاما بأى مسـتقبل (٣) ..

وكان الخـروج المفـاجىء لهـذا الشعب الى معطيات الحضارة الانسانية التى تطورت بمعزل عنه أصابه بالذهول والدهشـة ، وخلق عنـده احساسا عميقا بالذنب تجـاه نفسه ، وتجـاه ماضيه ، وتجاه دوره الانسانى الذى اضطلع به منذ البدء ، بانيا حضارة الانسـان ومضيفا الى فكره وابداعه وعطائه العلمى والثقافى عموما.

هذه الفترات العازلة من تاريخ المنطقة خلقت المقولة الخاطئة عند أصحاب البعث الفـكرى من رواد حركة النهضـة ، فقـد حسبوا أن تراثهم العلمى والفكرى والفنى محصـور فى مقـولات هذه الفترة العازلة ، ونظروا الى الفكر العربى

والفن العربى والعلم العربى والدين الاسلامى من خلال هذه المقولات فتمردوا مرة وأحبطوا مرة ..

وانقضى وقت طويل حتى تم اكتشاف زيف هذه المقولات فانتظمت الأفكار واتضحت الرؤية . وهم حين تمردوا ، رفضوا كل المعطيات الموروثة ، واتجهوا بكل ثقلهم الى التغريب أى محاولة الارتباط بالغرب الذى عرفوا عن طريقه عصر الحضارة ومعطياتها الجديدة . وأخذ كل منهم من المنبع الذى تيسر له . ومن اللغة التى طوعت نفسها لتلقيه .

ولكنهم فى مجموعهم حاولوا التخلص من هذا الانتماء الفقير كل الفقر فى عطائه ، فظهرت دعوات تفصل كل بيئة عربية عن غيرها من البيئات ، وكأن كل قطر أراد أن ينجو بنفسه أولا ، كما ظهرت دعوات تربط المنطقة بحضارة البحر الأبيض المتوسط وترفض الارتباط بالمعنى الحضارى العربى (٤) .

وظهرت دعوات تقفز فوق الفترة العربية والاسلامية كلها لتثير انتماءات الى ما قبل الوجود الاسلامى فى هذه الأقاليم ، فهى مرة فرعونية ومرة بابلية ومرة آشورية ومرة فينيقية بل ومرة حميرية أيضا . ولم تقتصر المسألة على الاتجاه الفكرى، أو الانتماء الثقافى، بل امتد الأمر الى أنماط الحياة والسلوك ، وأنماط العادات الممارسة واللغات المستعملة والتذوق الحضارى والتركيب المجتمعى والادارى والسياسى كذلك . ووصل الأمر الى الضجر من اللغة العربية نفسها ونحوها وصرفها بل وحروف كتاباتها .

وظهرت الدعوة الى التبسيط والى احياء العاميات والى هجر الحروف العربية الى حروف لاتينية فى الكتابة نفسها (٥) .

وهذه النظرة أدت الى معاملة التراث العربى بنوع من الاستعلاء والتجاهل ، والى النظر الى التراث الشعبى بنوع من الازدراء والسخرية .

وحين أحبط هؤلاء تقوقعوا ، وحاولوا الهروب من احساس بالتخلف الى مزيد من التخلف ورفض العصر والعودة الى الماضى ، وهم لم يختاروا من هذا الماضى الا صوره المتخلفة القريبة اليهم ، فاعتبروا كل ما خالفهم كفرا والحادا ، وخافوا من كل المقولات التى تريد أن تربطهم بالمعنى الحضارى الجديد الذى تفتح عصرهم قلبا وعقلا عليه (٦) ٠

فقاوموا حركة التحضر التى أعطت المرأة مكانتها فى المجتمع ٠ وقاوموا حركة التجديد فى المنهج الفكرى والعقلى ٠

وقاوموا الاعتراف بمعطيات العلم الحديث التى تخالف ما تجمد لديهم من نصوص ومسلمات ، وقاوموا التغير الاجتماعى الذى يحدث بالضرورة والفعل نتيجة انفتاح المجتمع المنطوى على نفسه على المجتمعات الجديدة حوله ٠

وقاوموا مقولات السياسة التى تبدأ من

الوطنية وتسير الى القومية ، مرتكزين على معنى الارتباط الدينى وحده ، متجاهلين كل التغيرات السياسـية التى حـدثت فى العـالم والـرؤى السياسية المختلفة التى بدأ العـالم يدين بها ، ويوجه تحركه السياسى من أجل تحرر الانسان طبقا لها ٠

وأنكروا ما أحدثته الآلة والتقـدم الآلى من تطور فى نظم الحياة وأساليبها ، بل وفى أحيان كثيرة أنكروا الآلة نفسها وأنكروا انجـازها ٠ وغلفوا كل رفضهم هذا بستار دينى ٠

وهكذا أغفلوا روح الحضارة فى الاسـلام وتحصنوا وراء مجمـوع المعطيـات المبـاشرة والبسيطة ، وزادوا على ذلك بأن اتهموا العصر والحياة حـولهم ، مطالبين بالعـودة الى أنماط الحياة التى سـادت قبـل قرون عدة واتسمت بالبسـاطة فى المعطى الحضـارى والفـكرى والعلمى والخلـو من تعقيـدات دنيـا العصر وتشابك ظروف الحياة فيه ٠

من هنـــا كانت النظـــرة الى الفنـــون عامة باعتبارها أعمالا لا يقاربها الا من خالف قولهم وعارض منهجهم ، ومن هنا أيضا كانت النظرة الى الابداعات القومية ترفض كل مالا يســـاير القول الحرفى لما أقروه من معطيـــات بســـيطة ومسطحة لمعنى الدين ٠

وهم فى الحالتين معا وقعوا فى خطأ المقولة التى تنكر على الأدب العربى دوره فى المساهمة فى التعبير الدرامى عن الانسان العربى منـــذ البدء وحتى عصور العزلة والانحطاط ٠

فهم فى بعض الحالات أحالوا كل الانتـــاج الى تقليد الغرب واستيراد نماذجه ، وفى حالات أخرى رفضوا كل العطاء واعتبروه بدعة وضلالة لا مجال لها فى ظل معنى الأدب عندهم ٠

وكان لابـــد أن ينقضى وقت كاف لتتبلـــور

القضايا وتستقر الـزوابع ويبدأ الفهم المتزن لحقيقة الوجود الحضـارى والمعطيات الفـكرية والأدبية العربية معا • وساعد على هذا التبلور ما أثمرته حركة الترجمة من تعرف جديد على معطيـات حضـارية وفكرية اســلامية وعربية استهوت مفكرى الغرب وعلماءهم وأدباءهم ، وأعطت لهم الكثير ، فترجمـوها واختبروها ، وتفرغت فئة منهم لدراستها والعناية بتحقيق أمهاتها والعكوف عليها عكوفا علميا نموذجيا ، ما سمى بحركة الاستشراق •

وكأن أصحاب التغريب حين ذهبوا الى الغرب واجهتهم أمتهم بعطائهـا الثرى القـديم فأعدوا الحسابات • وعادوا ينظرون الى مسلمات عصر الجمود من عطاءات أمتهم الفكرية والأدبية بنوع من الشك والانكار ثم بنوع من الثورة والتمرد• وساعد عـلى هـذا التبلور ما أدت اليـه حـركة الرجعة الى الوراء من تعرف على حقيقة المبادىء التى أدت الى الحركة ، والى حقيقة الفعل الذى

أدى الى سيادة الدين واللغة ، والى أن المسلمين القدماء تعرفوا على معطيات الحضارات السابقة لهم والمعاصرة لبدء خروجهم من الجزيرة العربية فترجموها ودرسوها وتدارسوا معطياتها لصوغها صوغا اسلاميا يتفق مع روح الدين الحضارى الذى يعتنقونه ومع رسالة هذا الدين التى تريد نشر العدالة والحرية والأخوة للعالم كافة لا لفئة منعزلة أو بيئة معزولة .

وكأن أصحاب الردة حين ذهبوا الى الماضى واجهتهم عظمة الروح التى اندفعت بالدين الى الخارج ، ورفضت له التقوقع والهروب بنفسه فى خندق منعزل ، وأرسلت كتائبها وأبناءها ومعهم دينها وأفكارها وطموحها ، وزودتهم بالتواضع لمعنى العلم والرغبة فى تحصيله والتفوق فيه ، وآزرتهم بالتواضع لمعنى الفكر والرغبة فى فهم كل شىء والتعرف على كل شىء من دون خوف ولا رهبة لبناء الصرح العتيد

الذى اسمه الوجود الاسلامى حضــارة وتقــدما وفكرا ودينا على السواء ٠

وهكذا لم تكن الدعوة الى القفز فوق المنطقة الخراب شاذة أو غريبة ، ولم تكن المحاولات من أصحاب التغريب أو أصحاب الدعوة الى السلف معا لايجــاد صيغة مشتركة لفهم حقيقة التراث العربى وضرورة ربطه بالحاضر المعاش تجربة وفكرا وابداعا شيئا يغاير طبيعة الأشياء ، بل كان نتيجة منطقية واضحة لمحصلة الصراع بين الاتجاهين الحــادين أول الأمر ، المتعلقين فى آخره ٠

وكان هو المنتظر من أمة تريد أن تتضــافر على البناء بعد أن اتضحت لها الرؤية ، وأوقفت حماس الرفض المستعلى حينــا والمنطــوى حينا آخر ٠

وظهرت من الجانبين معا دعاوى القفز فــوق منطقة الهمــود والضــياع ، ودعاوى ضرورة

الربط بين حاضر يأخذ بكل ما أخذت الحضارة الانسانية المعاصرة نفسها به من تقدم وتطور، وبين ماض عريق حوى فى أعماقه وفى مظاهره معا كل معانى التطور والتقدم والعطاء الجاد للانسانية ، ولم يكن بالتالى عجيبا أن يقود الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى حركة الترجمة من كل اللغات وفى كل الفنون ، ولا أن يلفت الى الديمقراطية الغربية أو الى ضرورة تعليم المرأة ، أو الى أهمية المعطى الميثولوجى فى ترجمته لتليماك ٠

ولم يكن عجيبا أيضا أن يدعو جمال الدين الأفغانى الى ضرورة التمسك بالعربية كلغة العطاء والتفاهم الرسمى والى ضرورة اصلاح معنى الفهم السائد للاسلام كدين الحضارة ٠

ولم يكن أيضا عجيبا أن يظهر محمد عبده داعيا الى التجديد فى النظر الى الدين وحقيقة عطائه وفلسفته ومؤيدا لسطوة العقل والتقدم والحرية ٠

وفى الوقت نفسه لم يكن من الغريب أن يكون محمود البارودى هو المعبر بين الشعر العربى القديم والحركة الشعرية المعاصرة له ، فيقفز بشعره فوق كل مراحل الجمود والتخلف ويصل أسباب الشعر المعاصر له بالشعر القديم بكل تقاليده ، وموروثه وعموده الشعرى وجزالة لفظه وبكل معناه وموسيقاه الشعرية الأصيلة ، ليمهد الطريق الشعرى لأحمد شوقى وحافظ ابراهيم وخليل مطران وغيرهم من أعلام النهضة الشعرية المعاصرة الذين عادوا الى المنبع فاستمدوا منه ، وأثروا يومهم بمعالجة قضايا العصر ومشكلاته شعريا ، وربطوا بين أصالة التذوق القديم وجدية التذوق المعاصر ، لكنهم آخر الأمر عادوا بالشعر الى عطائه المرتبط بالموروث الشعرى النبيل الذى قدمته الحضارة الاسلامية منذالبدء فى عصورها المتتالية ، بحيث يمكن أن نعتبرهم ومن معهم، الكلاسيكيةالجديدة فى الشعر العربى •

وحين قامت عليهم ثورات حركات التجديد ـ الرومانسية عند المهجريين ومدرسة أبولو ، والانطباعية عند عباس العقاد وابراهيم المازنى وعبد الرحمن شكرى وطه حسين ، والواقعية عند بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وفدوى طوقان وصلاح عبد الصبور واحمد حجازى وعبد الوهاب البياتي ـ كانت هذه الثورات تعنى أن الحياة الطبيعية عادت تدب فى أعطاف الشعر العربى من جديد ، وأن الفن بعد أن استرد وجوده ونمطه بدأ يتقدم ويثور ويبحث عن أشكال جديدة ورؤى جديدة فى التعبير ، وهذه سنة الكائن الحى ٠

وعلى الصعيد نفسه بدأت النظرة الى الأدب القصصى ، ولو أن الاقتراب منه كان اقترابا حذرا فقد وقرت عند رواد الدراسات الآدبية مقولة للمستشرق رينان أن العقلية العربية مباشرة لاتستطيع التركيب وهى بهذا لاتستطيع أن تبدع العمل القصصى (٧) ٠

كما ترسخ فى أعماقهم أن ما عــرفه العرب من العمل القصصى مجرد مجموعة من الأخبار والطرائف التى لا فن فيها ولا حرفية فنية قياسا على ما عرفوه من فن وحرفية فى أشكال القصة والرواية والمسرحية المنقولة عن الغرب(٨) ٠

كذلك ترسخ فى أذهانهم أيضا أن القصــة التي عرفها العرب لا تخرج عن المقامة الأدبية فى شــكلها التقليدى (٩) ٠ لمــا حفلت به من ضروب الاحتفال بالشــكل والحيــل البلاغية . أما ما عدا هــذا مما جاءت به كتب الأخبـــار والأدب فهـــو لا يرقى الى مرتبــة الفن لخلــوه من هـــذا الاحتفـــال بالشـــكل ولعطله عن هــذه المهارات البــلاغية ٠ فأصحاب الثقــافة الغربية من الدارسين والنقــاد انســاقوا وراء مقولة المستشرقين عن العقلية العربية من دون أن يسألوا أنفسهم أى عقلية عربية يقصدون، هل هى عقلية أبناء الجزيرة أم أبناء الرافدين

والشام أم أبناء النيل والمغرب ، وكلهم ساهموا في تكوين التراث العربي القولي (١٠) .

كذلك انساقوا وراء مقولات البلاغيين القدماء ، وشاركهم في هذا أصحاب النظرة المحافظة ، من أن الفن القولي العربي هو ما كان فصاحة ونبلا في الصياغة ، وما استعمل كل ما أخرجه البلاغيون من زخرف الشكل والمعنى معا .

ولم يكن غريبا والحال هذه انكار قيمة الرواية على الأدب العربي عامة ، وانكار الابداع الشعبي الذي تجلى في السير الشعبية العظيمة وفي ألف ليلة وليلة التي بهرت ترجماتها كل شعوب الغرب وفي حكايات الحيوان متمثلة في كليلة ودمنة وفي الحكايات المجمعة وقصص الأمثال والأيام وغيرها . الا أننا سرعان ما نجد أن مقولات أصحاب النقد الأدبي من المدرستين لم توقف حركة الابداع المرتبط بهذه الجذور

القديمة فاحتذى ابراهيم المويلحى أسلوب المقامات (١١) .

ومثله حافظ ابراهيم ، واحتذى ابراهيم رمزى أسلوب السير الشعبية (١٢) .

وعارض جرجى زيدان السير الشعبية فى مؤلفاته الروائية عن تاريخ الاسلام (١٣) .

واستلهم طه حسين وتوفيق الحكيم وسيد قطب وعلى باكثير وغيرهم ألف ليلة وليلة (١٤) .

وكتب أبو حديد عن جحا وتوفيق الحكيم عن أشعب . وظهرت الرواية التاريخية عند جرجى زيدان وأبى حديد وعلى باكثير وغيرهم مستعيرة من الشكل المنقول والتراث الثرى المعطاء .

واكتملت الدائرة حين بدأت تظهر الدراسات عن الفنون القصصية العربية . فدرس ألف ليلة وليلة أكثر من دارس منهم جرجى زيدان وحبيب الزيات . ثم غزت ألف ليلة وليلة الجامعة حين

نالت د • سهير القلماوى درجة الدكتوراه فى رسالتها عنها • وتلاها فى الحقل الجامعى د• عبد الحميد يونس فى دراسته عن سيرة الظاهرة والسيرة الهلالية ود• محمود ذهنى فى دراسته عن عنترة بن شداد ود• نبيلة ابراهيم فى دراستها عن ذات الهمة • وهكذا فرضت الأعمال الروائية العربية المتوارثة نفسها على حقل الجامعة كما فرضت وجودها خارج الجامعة فى دراسات عدة لكثير من المفكرين ورجال البحث والأدب (١٥) •

واتضحت قضايا عدة مهمة منها وجود الفن الروائى الخاص بهذه السير (١٦) •

ومنها أنها مكتوبة بلغة عربية مبسطة ولا علاقة لها بالعامية الا فيما يلائم الفن الروائى نفسه ، وأنها عالجت قضايا انسانية مهمة ترفعها الى مصاف الآثار الانسانية العظيمة التى ترسم كفاح الانسان من أجل معانى الحرية والشرف والنبل والاخاء (١٧) • وهى

أساسيات جاء بها الاسلام كدين وفكر ، وتأثرت بها السير الشعبية كفن روائى يصدر عن حضارة بذاتها لها مميزاتها وأهدافها ، ومنهـا أنهـا قدمت صياغة فنية روائية للتـاريخ الاسـلامى وللشعوب العربية فى كفاحها ضد أعداء الخارج من الطامعين فى الأرض والثروة وضـد أعداء الداخـل من المستغلين والطغـاة وسـفاحى الشعوب (١٨) ٠

ومن هنا سقطت المقولة الخاطئة التى سادت أول حـركة النهضـة العربية الفكرية ٠ وبدأ مسار الدراسات الأدبيـة يعترف بوجـود الفن القصصى العربى وبجذوره الضاربة فى أعماق التاريخ العربى والاسلامى على السواء ٠ كذلك بدأ هذا المسار يعترف بأن ما وفد الينـا مـع الترجمة والاتصال بالغرب كان شكلا من أشكال العمل الروائى والقصصى فرضته ظروف التطور والظـروف الاجتماعية والثقافية السـائدة فى عصره ، وأن هـذا الشكل يتطـور مع المتغيرات

التاريخية الحتمية ، وآن ما عرفه العرب شكل روائى خاص بهم تطور وتغير مع حركة التغيير والتطور التى مر بها أبناء العربية منذ أصبحت لغة العطاء الأدبى فى الجاهلية داخل الجزيرة العربية ، الى أن تغيرت وتطورت مع خروج العرب الى عصور الحضارة والتقدم ومع تعبير العربية عن المزيج الانسانى الذى سمى بالشعب العربى أو بالشعوب الاسلامية التى امتدت رقعة بلادها من المحيط الى الخليج ، وجاوزت هذا الى أعماق آسيا وأفريقيا وأواسط أوروبا مستفيدة من عطاء الحضارات السابقة ، ومتطورة مع العطاء المتجدد لأبناء شعوبها الذين عبروا بالعربية فى فنونها المختلفة وأهمها الفن القصصى .

٢ ـ القصة العربية :

يبدأ الدارسون للأدب العربى دائما من المعطيات الأدبية للعصر الجاهلى ، أو من الجزيرة العربية قبل الاسلام باعتبار أن اللغة العربية

الأدبيـة المـوحدة جاءتنـا أول ما جاءتنـا من عطاءات هذه البيئة فى هذا العصر على شـكل الشعر والخطب وبعض الأشكال التعبيرية الأخرى الأقل أهمية ، كسـجع الكهان والأخبـار وأيام العرب والأمثال وغيرها .

وهذه البداية قد يكون لها مبررها باعتبار اللغـة هى وعاء الأدب ، وما دامت الصـورة المتكاملة للغـة الأدب العربية ظهرت فى هـذه البيئة وفى هذا العصر ، فهى البـداية اذن . ولكنها فى الحقيقة مقولة خاطئـة أخـرى وقع فيها رجال الدراسات الأدبية . فاللغة العربيـة المتطورة فى شمال الجزيرة العربية لم تبدأ من فراغ ، بل هى بنت سلسلة من التطورات اللغوية والاختيـارات اللغـوية والتصـفيات اللغـوية أنتجتها آخر الأمر . وهى حين بدأت فى التكامل كانت تحمل الثقل الثقـافى لـكل اللغات التى أخذت عنها وتطورت منها (١٩)

كذلك كانت تحمل الثقل الثقـافى لعصرها

نتيجة الاحتكاك الدائم لأصحابها بالشعوب الأخرى المجاورة لهم ومعرفتهم للغاتها وآدابها وعطائها الفكرى والابداعى على السواء • اذ لم يكن العرب شعبا معزولا عن الحياة ، بل كانوا واسطة نقل تجارى بين الشمال والجنوب ، أو بين أوروبا وآسيا ، وعرفت سفنهم الرحلة فى المحيطات والبحار، كما عرفت رواحلهم الانتقال بين ثغور الشام وثغور اليمن •

ولهذا لم يكن مستغربا حين استقر الحال بالدولة الاسلامية أن تنشط فيها حركة الترجمة عن كل اللغات القديمة وفى كل فروع المعرفة الى اللغة العربية • فقد كانت العربية قبل الاسلام لغة من لغات تسود المنطقة ، ثم أصبحت بعد الاسلام هى لغة اللغات التى لا سيادة فى المنطقة لغيرها • واذا كانت من قبل تساهم فى تكوين التراث الثقافى لأبناء المنطقة فقد غدت بحكم الواقع المسؤولة عن الوجود الثقافى للأمة الجديدة الاسلامية الدين العربية اللغة •

وقد كان أبناء الشعوب فى المنطقة يتعاملون مع الأدب العربى عن طريق ترجمة ما تيسر لهم منه ، كما كان أبناء الجزيرة يتعاملون مع أدب المنطقة عن طريق ترجمة ما تيسر لهم منه أيضا (٢٠) .

ولكن بعد أن دخلت هذه الشعوب فى الاسلام وارتضت العربية لغة ، صار من الحتمى أن تنتقل بموروثها الفكرى والأدبى كله الى هذه اللغة . وبمراجعة الفهرست لابن النديم نضع اليد على جهد متصل فى عملية الترجمة التى قام بها أبناء هذه الشعوب لدور انتاجهم الفكرى والأدبى الى اللغة العربية حتى قبل أن تنشط حركة الترجمة المنظمة أيام المأمون (٢١) .

فاحساس الوحدة والتكامل البيئى والثقافى من ناحية ، ووحدة المصير فى مواجهة عدوان مشترك الذى ما أن يصيب جزءا من هذه المنطقة حتى يجتاح باقى أجزائها . من ناحية أخرى

جعل من المنطقة وحدة مشتركة فى الهموم والتطلعات وفى المصير والمعارك أيضا ٠

وجاء الاسلام ليجعل هذه الوحدة حقيقة ممارسة تحت شعار واحد وفلسفة واحدة ولغة تعبيرية واحدة ٠ ومن قبل جاء الغزاة من خارج المنطقة ليحققوا وحدتها تحت سطوتهم : الاغريق والفرس والرومان ٠ ولكن الوحدة هذه المرة تنبع من داخل المنطقة نفسها، ويحققها أبناء المنطقة فى مواجهة استمرار عدوان هؤلاء الأعداء القدماء ومن حل محلهم بعد هذا ممثلا فى الدولة البيزنطية والدولة الرومانية ودول أوروبا فى العصور الوسطى تحت الشعار الصليبى ٠

وهذا الموقف لا شك لعب دورا هاما فى امتزاج الفكر وتقارب الوجدان ، وكذلك فى المزج الجنسى والعرقى التدريجى بين أبناء المنطقة ٠ ولا يجب والحال هذه أن ندهش لوجود آثار واضحة للثقافات الأخرى داخل

الثقافة العربية منذ قديم . ولا يجب أيضا أن ندهش حين نجد أن الأعمال القصصية العربية تعكس هذه الوحدة سواء فى التمازج الفكرى ، أم فى الانتقال الطبيعى والتلقائى للأحداث من منطقة الى منطقـة ، أم للبقـايا الأسـطورية والملحمية والروائية لابداعات هذه الشعوب كلها كما نرى بوضوح فى ألف ليلة وليلة وفى السير الشعبية ذاتها (٢٢) .

وقد أدى البحث الى أن العرب عرفوا بالفعل هذه المعطيات الأسطورية وأعادوا تقـديمها فى أعمالهم القصصية منسوبة فى غالب الأحيان الى أصـحابها ، وان أعادوا صياغتهـا بما يلائـم فلسفتهم الجديدة بعد الاسلام (٢٣) .

وتأخر اعتراف الدارسين العرب بكل هـذه الحقائق جاء نتيجة ـ كمـا قلنـا ـ للمقـولة الخاطئة التى جعلتهم يسلمون بما قالته الحكومة الأدبيـة عن العصر الجـاهلى من أنه عصر فقر حضارى وثقافى ودينى على السواء ، وبالتـالى

فهو لم يعرف الحركة الحضارية التى يمكن أن تبلور نظرة الانسان الى حياته لتكون تلك النظرة الجدلية التى تخرج لنا التصور القصصى أو التفكير الدرامى بشكل عام • والحكومة الأدبية نقصد بها رجال اللغة المرتبطين برجال الدين ورجال السلطة معا ، والذين تصوروا أن دراساتهم للغة العربية وآدابها انما هى فرع من دراساتهم للقرآن الكريم ولغته وبلاغته •

وقد مزج هؤلاء بين الموقف الدينى المتشدد، وبين أهداف السلطة وخدمة مصالحها • فأصبحت مهمة الأدب هى الدعاية للسلطة من ناحية ، وخدمة علوم القرآن من ناحية أخرى• وأصبحت أهداف الشعر مرتبطة بهذا المعنى ، وكذلك وظفت الخطابة من أجل تحقيق هذا الهدف ، وظهر أدب النثر الذى اعترف به كالفن النثرى الوحيد، وهو أدب الرسائل الذى يعين من يمهرون فيه فى أعلى وظائف الدولة • ولم يعد الأدب تعبيرا عن ذات منشئة بقدر ما أصبح

مهارة فى تقديم المعنى المراد سياسيا أو دينيا على السواء .

الا أن الثقل الدينى لهذه الحكومة فرض مقولة خطيرة أثرت فى كل الأحكام الأدبية والثقافية بعد ذلك ، ذلك أنهم قالوا ان الاسلام قد جب كل ما قبله . على الرغم من أن المقولة سليمة من الناحية الدينية حيث قضى الاسلام على عبادات الوثنية والشرك التى كانت سائدة قبل ظهوره ، الا أن فرض هذه المقولة على كل الحياة الثقافية أحدث آثارا ذات طابع مؤثر على الحياة الأدبية والدراسات الأدبية استمرت زمنا طويلا. ذلك أن هذه المقولة وضعت ساترا ثقيلا ضد تدفق كل ما صاحب العقائد قبل الاسلام من مأثورات قولية وممارسات فنية متوارثة ومحملة بكل التراكمات الثقافية للحياة العربية قبل الاسلام . ذلك لأن هذه المقولة جعلت من حياة الأدب العربى شيئا فريدا بين آداب العالم القديم كله .

فحين كانت آداب الشعوب كلها تولد مرة واحدة عند المعبد ، وتخرج كل فنونها من الممارسات المعبدية القديمة ، فتكون الأسطورة البداية الطبيعية للفن القصصى تتطور بعدها الى المرحلة الملحمية القصصية ثم الى المرحلة الدرامية أو مرحلة المسرح ، كان الأدب العربى وحده هو الذى يولد مرتين ، مرة عند المعبد كغيره من آداب الشعوب الأخرى ، ومرة ثانية بعد الاسلام بعد أن أجهضت الحكومة الأدبية بالمقولة السابقة استمرار النمو الطبيعى للأدب العربى القديم (٢٤) .

ولعل هذا هو الذى تسبب فى اغفال الدارسين للأدب القصصى العربى القديم ، فهو بلا شك محمل بالآثار الطقسية القديمة ، وهو بلا شك أيضا وليد ما كان يسود الجزيرة العربية من أساطير تفسر ظواهر الكون وتعلل الأحداث المؤثرة فى حياة الانسان ، وتؤرخ نقلاته الحضارية فى قالب مرتبط برموز الآلهة القديمة

وما تمثل من قدرات ، وما تعنى من قوى خفية تنجسد فى ابطال الخوارق والقدرات التى تفوق طاقة البشر (٢٥) . وهى بهذا تحمل بقايا العبادات القديمة ، وتحمل أيضا بقايا الممارسات الطقسية القديمة ، وتحمل ثالثا مجموعة من القيم تحدد علاقة الانسان بالكون وعلاقته بالقوى المتحكمة فى الكون وعلاقته بالبشر الآخرين ، جاء الاسلام ليغيرها ويقضى عليها ، ويحل محلها قيما جديدة تحدد علاقة الانسان بالكون ، وعلاقته بالقوى المتحكمة فى الكون ، وعلاقته بالبشر الآخرين (٢٦) .

ولهذا ، جاءت الولادة الثانية للأدب العربى بعد الاسلام تريده أن يخلو من كل الموروث الأدبى القديم المحمل بكل هذه المعطيات الأسطورية الملحمية والدرامية التى ارتبطت بعقائد وثنية لا مكان لها بعد ظهور الاسلام . والحكومة الأدبية كانت حازمة فى موقفها تماما، واستطاعت أن تضع هذا الشعار الحاجز فى

طريق النمو الأدبى القصصى لتحول دون استمراره وتدفقه وتطوره • الا أن القرآن نفسه حل هذا التناقض وأزاح هذا الستار ، وسمح للتيار أن يتدفق فى سخاء وحيوية •

٣ ـ الاسلام والرواية :

لعل العرب كانوا من أكثر الشعوب ايمانا بقوة الكلمة واعجازها • فقد تصوروا وجود قوة خفية هى التى تصوغ هذه الكلمات ذات الايحاءات والظلال ، وذات الرموز التى تحيل الى معنى خلف المعنى ، أو تجعل من المعنى شيئا مليئا بالعاطفة مثيرا للوجدان ، هذه القوة الخفية لا يحوزها الانسان العادى الذى يستعمل الكلمة فى أغراض الحياة العادية ، وانما يحوزها قوم اختصوا بعلاقة خفية مع قوى هى التى تمدهم بهذه الكلمات وهى التى تصوغها لما لها من قوة فوق البشر ، ثم هى التى تضعها على ألسنة هؤلاء الناس الذين اختصوا بهذه الميزة الخاصة ، ميزة الكلمة ذات الدلالة الخاصة والعطاء المميز (٢٧)•

وارتبط هذا المعنى بالمعبدالقديم منذ البداية ، فكان سجع الكهان أول مظهر من مظاهر الكلمة الأدبية . ونسبوا هذا السجع الى الجـان الذين ينقلون رسائل الآلهة الى الناس عن طريق الكهنة الذين يرددون هذا الكلام المسجوع ولا يد لهم فى صنعه . وتصوروا الأمر نفســه بالنسبة الى الشعر ، فكل شاعر له رئى من الجان يلقى اليه بشعره الذى يقوله ، وسموا لـكل شـاعر اسم الجنى الذى يلقى له بالشعر ، وحكوا عن هــذا القصص وقالوا فيه الشعر ، وخصصــوا واديا من وديانهم المقفرة باسم وادى عبقر الذى يأوى اليه هذا النفر من الجن الذى يلقى بالشعر فى أفواه الشعراء (٢٨) .

وازداد ارتباط معنى الكلمة بهذا الغموض فربطوها بالسحر ، فالسحرة يستعينون بالكلام السحرى لاحداث التحول الذى يريدونه لخصومهم، والقصص العربية وبخاصة ألف ليلة وليلة مليئة بهذا الكلام السحرى الذى يلقيه الساحر عــلى ضحية فيحولها من صورة الى صورة .

وفى كلام الساحر تنبؤ وحكاية عن المستقبل وعن أشياء خفية فى الماضى، والساحر لا يعرفها الا عن طريق الجن الذين سخرهم لخدمته • وكلام المجانين الذى يحوى رموزا غريبة وخفية كلام الجن الذى مسهم فأخرجهم من حال العقل الى هذا الحال حيث يتحكم فيهم وفى كلامهم • وكذلك الأحلام التى تتحول فيها الكلمات الى رموز مجسدة لأشكال مرئية ، ويمكن أن يحولها الكاهن أو المتنبىء أو المفسر الى رموز كلامية تحكى عن المصير أو تنبىء بحدث أو تفسر أمرا فى حياة الحالم • لابد أن مبدع عالم الصور هذا ومترجمه معا قوة خفية هى قوة الجن •

ومن هنا نفى القرآن الكريم عن نفسه كل هذه الحالات فليس هو بكلام شاعر أو مجنون أو ساحر أو كاهن (٢٩) ، انما هو قرآن أنزله الله تعالى على نبيه (ص) بواسطة ملك كريم هو جبريل • ونفى هذه القوى كلها انما جاء ليبعد القرآن عن شبهة هذا الاتصال المعبدى القديم

بالكلمة من ناحية ، وليؤكد قدسية كلماته السماوية من ناحية أخرى • وليؤكد ان ما جاء به من حكايات الأولين ليس اختراعا أو أساطير الأولين • وانما حقائق سبقت للعبرة ، وللوصول الى القول الحق والمعنى القرآنى الصادق فى ارساء القيم ، وتأكيد فلسفة الاسلام القائمة على العبودية لله وحده وأخوة البشر ، ونبذ الشرك وهجر الرجس والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر •

وحين أسقط القرآن الشعر وأنماط القول الأخرى لم يعد من الممكن محاجاته بها ، فلجأ أعداؤه الى القصة يديرون معركتهم معه عن طريقها (٣٠) • ولكن القول القرآنى لم يكن قصة فيحاج بالقصة ، وانما يريد من القصة الدلالة والقول الحق • وهو يستعمل القصة والنبأ والحديث كثيرا فى وصف ما يقدمه من نماذج لحياة الأولين (٣١) • ولكنه لا يريد بها المتعة الفنية وان كان يريد منها الهدف الفنى فى

ارساء قيم بذاتها والوصول الى تربية انسانية وسلوكية وفكرية ذات ارتباط أكيد بما يرسيه من قيم جديدة لعلاقة الانسان بالكون والله والانسان الآخر .

وهكذا وجد المسلمون أنفسهم أمام عالم زاخر بحكايات الأنبياء وقصصهم وأحاديث الأولين وأنبائهم .

وكان لابد أن يستعين المفسرون بمن يعرفون لاكمال هذه الحكايات لتفسير ما ورد عنها فى القرآن الكريم من اشارات لتبين الهدف واضحا، وليتجلى القول الحق فيها ، فاهتم علماء التفسير منذ البدء بتتبع هذه الحكايات فى مظانها وعن حفظتها . وقدم لها هؤلاء ما أرادوا ، كما قدموا لهم معه العديد من بقايا ما عندهم من محفوظ متوارث من القصة العربية بأشكالها المختلفة . واندس في كلامهم كما يقول ابن خلدون (مثل بدء الخليقة وما يرجع الى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك) (٣٢) .

ولكن هذا لا يعنى اطلاقا أن الأساطير القديمة أطلت برأسها من جديد كما هى ، اذ ان الحفظة لها كانوا يعرفون جيدا أن المجتمع قد تغير تغيرا جذريا فى فكره ووجدانه ، وان ما كان مقبولا فى ظل الوثنية لم يعد مقبولا فى ظل الاسلام • وان المسرب الذى تتسلل منه البقايا الروائية العربية ــ وهو تفسير القرآن ــ مسرب اسلامى محكوم بالفلسفة الاسلامية ، ومسرب قرآنى محكوم بالهدف القرآنى من القصة التى أوردها فى سياق الهدف القرآنى ، ولذلك تدخل عامل الصياغة الجديدة ليبسر لهذه الحكايات أن تقبل لدى المفسرين من ناحية ، ولكى تقبل فى ضمير المستقبل الاسلامى من ناحية أخرى •

وحين نخرج هذه القصص فى كتب مستقلة بعد ذلك يظهر فيها أثر الصياغة الاسلامية بشكل واضح ، بحيث نستطيع أن نقول انها ولدت ولادة جديدة ، وانها مرت فى مصفاة غاية فى الدقة • ما خالف روح الاسلام وفلسفته استبعد

تماماوسقط ولم يعد لنا شيء يذكرنا به وبخاصة ما ارتبط بالطقوس المعبدية ، وما التحم التحاما عضويا بالعبادات القديمة والمعتقدات الفكرية والعطاءات الوجدانية الملازمة لها ، وهذا يعنى الأساطير الأولى بصورتها الأصلية . وما أمكن أن يتواءم مع الروح الجديدة ، حور وعدل بحيث يتواءم ولا يختلف فى الجوهر والسياق مع المسلمات الفكرية الجديدة ، وما أمكن توظيفه توظيفا فنيا وروائيا ليكون فى خدمة المعنى الجديد السائد ، حور وركب بحيث يخدم المعنى الاسلامى والحدث الاسلامى

ويبدو هذا واضحا فى القصص التى تدور حول الأماكن ، فهى فى معظمها تحوير لأساطير المكان القديمة لتكون نبوءة بالدين الجديد وتبشيرا بدور هذه الاماكن فى الاسلام، وبخاصة ما يتعلق بحفر بئر زمزم (٣٣) والكعبة ، والمدينة أو يثرب، والجبال المحيطة بمكة (٣٤).

فالموقف اذن أن الأساطير العربية بصورتها

القديمة قد أغفلت وضاعت ، وان القصص المبنية عليها أو المستلهمة منها اما أغفلت أو حورت لتلائم الروح الجديدة فى صياغة اسلامية، واما طوعت ووظفت لتكون المهاد الروائى للمعطى الاسلامى الجديد .

ولكن الذى لا شك فيه أن الموروث العربى الروائى الذى وصل الينا كان ثريا وغنيا، وكان مليئا بالعطاء الفنى القصصى الذى يسر للكثيرين من المؤلفين أن يقدموا لنا كتب عصر التجميع التى احتوت هذه الأعمال بصياغتها الجديدة ، كما يسرت لنا الاطلاع على مؤلفات عصر الابداع الفنى فى السير الشعبية والحكايات المجمعة ، حاملة عطر الجزيرة وفنها الروائى ، الذى لم يفقده العلاج الاسلامى شيئا ، بل لعله وظفه توظيفا انسانيا قريب الروح للمعنى الاسلامى، وقريب الدفاع عن موقف الانسان من الكون والله والانسان الآخر كما يفهمه الاسلام ويقره .

ثانيا :

منابع الرواية العربية

١ ـ الشعر والرواية

٢ ـ المعطيات الروائية العربية القديمة

(أ) قصص الجنوب

(ب) قصص الفتوة ٠

(جـ) قصص الأنبياء ٠

(د) الطرائف

١ ـ الشعر والرواية

الشعر ديوان العرب ، هذه المقولة تعنى اننا نبحث فى هذا الشعر عن بلاغة العرب، ومهارتهم اللغوية وفصاحة ألسنتهم ، الى جوار حسهم الموسيقى واستجابتهم الى الايقاع الموزون بأطر موسيقية محددة • وهى تعنى أيضا أن نبحث فى هذا الشعر عن عادات العرب وتقاليدهم ، ونماذجهم الخلقية والسلوكية ، وأنماط الحياة التى تفرضها ظروفهم البيئية ، وتطورهم الاجتماعى ، بحيث يمكن لنا من خلال هذا

البحث تصـــور ألوان الفلســـفات التى حـــكمت حياتهم وحكمت سلوكياتهم (٣٥) ٠

وهذه المقولة تعنى أيضا أننا نبحث فى هذا الشـــعر عن مكنـــون وجـــدانهم ، كيف واجهوا أحداث الحياة ، وكيف انفعلوا بهـــا ، وما هى القضايا الرئيسية التى طرحت نفسها عليهم ، وكيف عبروا عنها، وبمعنى أوضح كيف اكتشفوا وجه الانسان وهمومه ، وكيف صوروا هـــذا الوجه وعبروا عن همومه أيضا ٠ ولـــكن هـــذه المقولة أيضا تعنى اننـــا نبحث فى الشـــعر عن أصـــداء الأحـــداث المحـــورية التى لعبت دورها الرئيسى فى تشكيل كل هذا ، واضفاء اللـــون المميز عليه ٠

والواقع أن هـــذا الشعر يفى بكل هذا وفاء كاملا ٠٠ وقد نجح البحث الأدبى فى أن يصور لنا هذا الوفاء فى كثير من الأحيان ، ولكن مازال حتى الآن عاجزا عن كشف وفاء الشـــعر بباقى ما نريده منه ليكون بصدق ديوان العرب ٠ فان

كنا نحس قصورا فى عطاء الشعر لنا ، فالقصور هو قصور الدرس وليس قصور الشعر نفسه ، لأن الدرس ركز اهتمامه بجوانب معينة طبقا لفلسفة الدارس ومنهجه ، وأغفل حتى الآن أشياء معينة بناء على قصور الأدوات ، وضيق النظرة ، ونقص فى شجاعة أصحاب الدرس . فقد نجح الدارسون فى كشف أوزان الشعر وموسيقاه ، وأسراره الجمالية وأسسوا علوم البلاغة العربية بناء على اكتشافاتهم النقدية (٣٦) .

ونجح الدارسون أيضا فى رسم صورة كاملة للعادات العربية وللنماذج الخلقية ولأنماط الحياة . وتوصلوا الى أنواع المنهج الفكرى الذى يتحكم فى السلوكيات العربية من خلال استقراء النماذج الشعرية ودراستها . ولكن الدارسين لم يستطيعوا الى حد كبير أن يكشفوا أوجه الانسان ، وهموم الانسان الانسان ، وارتباط هذا كله بوقع الأحداث المحورية المهمة فى حياة الشاعر وقومه .

فالصورة الى حد كبير تكتفى بالوجه الخارجى للمشكلات التى تواجه الشاعر دون أن تذهب الى عمق التجربة الوجدانية التى تمس الفرد من حيث هو فرد • ومن حيث هو عضو فى جماعة ومن حيث هو انسان آخر الأمر • وهم حين قسموا أغراض الشعر الى نسيب ومدح وهجاء وفخر ورثاء أخذوا فى الاعتبار الأغراض الاجتماعية العامة ، وابتعدوا كل البعد عن خصوصية العطاء الفنى ، وصدقه فى التعبير عن تجربة ذاتية مرتبطة بتجربة الجماعة ومعبرة عنها فى الوقت نفسه •

ونحن هنا لا نلوم الشعر ، انما نلوم الدراسات الأدبية التى حركتها أهداف محددة وتصورات بعينها ، لم يكن الكشف عن جوهر الانسان من الأهمية فيها بالتصور الكافى • ذلك ان الفن القولى كغيره من الفنون خرج من عباءة المعبد ، والفن القولى العربى بالذات ارتبط بالمعنى السحرى كما قلنا ، وارتبطت

الكلمة المعبرة بما يفوق قدرة الانسان ، وكان لابد أن يربط الدرس الأدبى للشعر بالبحث فى البدايات الأولى للكلمة الشعرية ، تلك البدايات السحرية المرتبطة بالأسطورة القديمة ·

وقد وضع بروكلمان يده على هـذا المعنى حين قال « قبل أن ينحدر الهجاء الى شعر السخرية والاستهزاء كان في يد الشاعر سحرا يقصد به تعطيل قوة الخصم بتأثير سحرى ، ومن ثم كان الشاعر اذا تهيأ لاطلاق مثل هـذا اللعن يلبس زيا شبيها بزى الكاهن » (٣٧) ·

وأول صـور الشـعر كان الرجز ، والرجز ارتبط بالطقس المعبدى ثم ارتبط بعـد هـذا بالفروض الدينيـة كالحج والفـداء وتقـديم القـرابين ثم ارتبط بعـد ذلك كله بالعمـل والممارسـات الاجتماعيـة · ولم تكشـف لنـا الدراسات صورة هذا الارتباط فى عمق الشعر وعمقه الانساني على السواء ، وخير ما وصـلت اليه هو رصد الظاهرة وتسجيلها · وقد كان من

الممكن لو تم هذا الكشف آن نفوز بمجموعة من الأعمال القصصية التى ارتبطت بهذا القول فى تعبيره الدينى أو الاجتماعى معا . الا أن الرصد كشف عن تغلغل الشعر فى العمل الروائى العربى حيث ان ما جاءنا من الحكايات القديمة ارتبطت أحداثه بقول الشعر .

ولعب الشعر فيه دورا أكيدا وفعالا (٣٨) . عند أسطورة الخلق القديمة كما جاءت بصياغتها العربية الأخيرة والشعر يرد على لسان آدم فى رثاء هابيل حين يقتله أخوه قابيل . ثم تتوالى الأشعار داخل الحكايات القديمة عن الأنبياء والملوك والابطال على السواء . فهناك أشعار لقمان فى موت النسور نسرا نسرا ، وهناك أشعار على لسان هود ويعرب وعاد . حتى لقد أوردوا فى قصة تبع الأوسط ٦٩٤ بيتا على لسانه هو غير الشعر الذى ذكر على لسان من عاصروه أو من تأثروا بجزء من قصته أو بأحداث القصة ومغزاها (٣٩) . وقفنا عند

هذه الظاهرة فى بحثين سابقين لنا ، وخرجنا بنتائج عدة مهمة وهى :

أولا : أن الشعر عصب رئيسى فى الأعمال الشعبية العربية عموما ، سواء منها ما يتعلق بالأحداث الأسطورية القديمة ، أم الأحداث الملحمية التى عاشها ملوك شبه الجزيرة ، أم ما يدور فى قصص أبطال الفتوة فى الحكايات العربية ، أم فى قصص أبطال السيرة الشعبية فى كل عصر وكل زمان .

ثانيا : أن ما دون من هذه الحكايات فى الكتب المختلفة يحوى أشعارا مضافة ومزيدة على ما جاء فى غيرها من الكتب وان الشعر ينسب الى ابطال القصة كما ينسب الى شعراء معروفين عاصروا الحدث ، أو شاركوا فيه ، أو لم يعاصروه أو يشاركوا فيه ، انما هزتهم الحكاية فضمنوها أو بعضا منها فى أشعارهم فى عودة الى استغلال الموروث الشعبى استغلالا رمزيا مرة

ووعظيا مرة آخرى ، وهو فى كل مرة يعمق شعرهم تاريخيا ووجدانيا على السواء ..

ثالثا : أن الكثير من الحكايات القديمة روى شعرا بعد أن روى نثرا ، فيقف القاص عند جزء انتهى ليعيد روايته بالشعر ثم يستأنف روايته النثرية من جديد (٤٠) . وهناك سيرة شعبية مازالت كلها شعرا وهى السيرة الهلالية مما يحمل احتمالا علميا ان معظم هذه السير بدأت بالرواية الشعرية فيما يكون ملاحم شعرية تحكى قصة البطولات والمعارك التى دارت اما بين قبائل الجزيرة بعضها مع بعض، واما بين قبائل عدنان وقبائل قحطان أى بين الشمال والجنوب ، واما بين الجزيرة ككل والغزاة الوافدين من الخارج كالأحباش والفرس والروم .

رابعا : أن الشعر اما أن يكون مكملا للحوار بين أشخاص الرواية وأبطالها ، واما أن يكون هو أساس الحوار الدائر بين الأبطال وخصوصا

فى موقفين رئيسيين من المواقف الروائية وهما : موقف الانفعال الوجدانى بعواطف الحب (٤١) وموقف الصدام والصراع السابق لمعارك السيوف والرماح .

خامسا : أن الشعر يدخل فى مواقف حاسمة فى السرد القصصى ليعكس المشاعر الداخلية للأبطال ، ويقدم الانطباعات والانفعالات المصاحبة للحدث الخارجى مما يكمل الصورة الروائية ويعمقها ، حتى لقد ذهبنا فى بحث (التراث الشعبى فى المسرح العربى) الى أن هذه الأعمال الروائية (كانت فى الأصل قصصا شعريا كلها ، ودخل عليها النثر متأخرا) كما ذهبنا الى أن هذا الكم الشعرى الهائل الموجود فى القصص (يدل دلالة قاطعة على الوجود الفعلى للملحمة الشعرية العربية) . والدارسون للفن الدرامى ينسبون تسلسل الأعمال الفنية الى الأسطورة فالملحمة ثم الى أنواع القول الأخرى من دراما ورواية وقصة ، ومعنى وجود بقايا

للملاحم الشعرية العربية يعنى البداية الصحيحة للفن القولى الروائى، ويقول د • محمد صقر خفاجة فى كتابه فى تاريخ الشعر اليونانى(٤٢)

« ان أقدم الأساطير كان غناء شعريا ثم ملاحم شعرية» ، كذلك يقول أرسطو فى فن الشعر(٤٣) من الترجمة العربية : ان أساس الشعر الفنى هو الملاحم الشعرية ، وقد استطاع هوميروس فى ملاحمه الشعرية العظيمة أن يكون النقلة الطبيعية بين فن الشعر المعبدى وبين الدراما التى خرجت من عبادة الملاحم والطقوس المعبدية القديمة معا •

اذا كان هذا هو الأمر بالنسبة للشعر الوارد فى المجمعات الروائية والمدونات القصصية التى اهتمت بالحكايات العربية القديمة وجمعها وتدوينها ، واذا كان الأمر اننا سنعتبر كل هذا الشعر شعرا شعبيا أضافه الرواة ونقلته الأعمال الفنية فى تراكم فولكلورى طلبه السياق ، أو طلبه الذوق الفنى للمتلقى العربى ، أو كان

الأمر أننا سنعتبر أن المقطوعات الشعرية كانت الأصل الشعبى الذى نسج حوله القصاصون والرواة رواياتهم النثرية وقصصهم البطولية التى جمعت بين النثر التصويرى والشعر التعبيرى ، فما الأمر بالنسبة للشعر الذى سمى بالشعر الغنائى، أو بمعنى أدق ما الأمر بالنسبة لما جاءنا من شعر لا شك فى ارتباطه باللغة الأدبية الرسمية ونسب الى شعراء معروفين بقول الشعر ، بدءا بالمقطعات الصغيرة ووصولا الى المعلقات التى غدت الأصول التقليدية لفن الشعر العربى ؟ سنلاحظ أولا أن هؤلاء الشعراء عرفت لهم مقطعات شعرية قالوها كصدى لقصة من القصص العربى القديم وقد عددنا أبياتا لشعراء مشهورين كأبى ذؤيب الهذلى وأمية بن أبى الصلت والنابغة الذبيانى ولبيد وامرىء القيس نفسه فى دراستنا السالفة الذكر .

وقد لاحظنا فى هذه الدراسة أن الشعر المنسوب الى هؤلاء الشعراء اما جاء فى كتب

الحكايات العربية ، واما جاء فى دواوين هؤلاء الشعراء وقصائدهم المشهورة ومنها المعلقات ٠ ولاحظنا أيضا أن هـذه الدواوين قد امتـلأت بالاشارات الشعرية الى عادات قديمة ممارسـة مرتبطة بجذور أسطورية لها دلالاتها على احداث متداولة ومعروفة اختلط فيهـا التاريخ بالفن القصصى ٠

كذلك لاحظنا أن المعلقات فى معظمها قصائد قيلت فى أصداء معارك معروفة من أيام العرب التى ملأت كتب الأدب بحـكايات طـويلة مليئة بالنسيج الروائى والأحداث القصصية التى قد يكون بعضها مما عرف فى التاريخ فعلا ٠ ولابد أن يكـون بعضـه الآخـر من اضـافات الرواة والقصاصين الذين حفظوا هذه الأيام والمعارك القبلية وتداولوا حكاياتها ٠ ولعل حرب داحس والغبراء التى وقعت بين عبس وذبيان تعـكس بأيامها صورة لتأثر الشعر (الغنـائى) بهـذه الأيام والحروب، فقد انتجتلنا معلقة عنترة بن

شداد فى تصويرها للعداء بين القبيلتين والحرب بينهما ، وأنتجت لنا معلقة زهير بن أبى سلمى فى الصلح بين القبيلتين ومحاولة رأب الصدع بينهما ٠

ونضيف هنا أنه اذا كانت الحرب أثرت على هذا الشعر فان الحب أيضا أثر فيه ٠ فشخصية المتجردة زوجة النعمان خلفت لنا شعرا كثيرا وأثرت على شعراء عديدين ، ويكفى أنها قدمت لنا معلقة عمرو بن كلثوم ، ومعلقة النابغة ، واحدة تهدد وتنذر ، والثانية تعتذر وتتودد ، غير القصيدة الطويلة للنابغة التى تعتبر أروع قصيدة غزلية عرفها الشعر القديم ، وهى القصيدة التى أغفلها النقاد فلم يجعلوها بين المعلقات لشدة صراحة بعض صورها ٠

ووراء كل هذه المواقف التى انتجت هذا الشعر حكايات وقصص بعضها بقى مجرد أخبار، أو ظل فى حدود قصص الفتوة التى تحكى عن

الفتاك والصعاليك والمجان ، لكن بعضها تحــول تدريجيا الى أعمال روائية كاملة وضخمة كسيرة عنترة بن شداد التى ترتكز أساسا على معــارك عبس وذبيان ومعلقة عنترة وسيرة الزير سالم التى ترتكز أساسا على حرب البسوس بين بكــر وتغلب التى ظهر أثرها فى شعر المهلهل وامرىء القيس ، ثم قدم لنا بدايات تغريبة بنى هــلال والسيرة الهلالية .

نحن نتحدث عن الشعر لا عن الدراسات التى غلبت به ، فالشعر ثرى بدلالته على أصول القصة العربية القديمة وتأصلها فى الموروث الشــعبى والذاتى على السواء ، أما الدراسات فيلخصهــا قول د . محمد مندور فى كتــابه فن الشــعر : « فالأدب العربى الفنى لم يعرف من فنون الشعر المدونة فى الآداب العالمية غير فن واحد هو الفن المعروف باسم (الشــعر الغنــائى) أى شــعر القصائد » (٤٤) .

وهذه المقولة هى جمــاع دراسات البلاغيين

القدماء ورواد عصر النهضة وصولا الى د. محمد مندور فى أواسط هذا القرن . ومعنى هذا ان نظرة الدارسين والنقاد لم تشغل الا بما شغلت به الحكومة الأدبية القديمة نفسها به من الظواهر الخارجية لهذا الشعر ، ليشرف القول وتتم معالم الفصاحة ولتتلاءم صور الأغراض الشعرية مع مقتضيات الحال العامة .

أما الشاعر نفسه ، وموروثه الثقافى الفنى، وما حملته قصائده من احالات الى هذا الموروث ، بما يعكس حاله وتجربته الوجدانية ، فتأخر البحث فيه تأخرا طويلا أدى الى مقولة خلو الأدب العربى من فن القصة . بينما نحن نرى الآن أنه فن العرب الأول أو شعرهم كان الدلالة الحاسمة على وجود هذا الفن الروائى القديم ، وعلى تأثيره فى القائلين فى فنون القول الأخرى ، وفى دخوله دخولا عضويا كاملا فى تجديد الشعر الذى هو ديوان العرب ، والذى هو انعكاس لفنهم القصصى والروائى ، وما تم تداوله من

أعمال فنية من أعماق التاريخ ومن المعبدالقديم وحتى ظهور المعلقات التى حـددت فن القصيد الشعرى ٠

واذا كان القرآن الكريم نفسه أمدنا بدليل وجود الحكايات القديمة والروايات المعـروفة والمتوارثة عنالشعوب البائدة والأديان السماوية السابقة للاسلام ، واذا كان الشـعر الذى هـو ديوان العرب أمدنا بدليـل وجـود الحـكايات الشعبية والتاريخسطورة العربية وبقايا أساطير التفسير والتعليل وأصداء الأيام والملاحم العربية القـديمة ، بما يثبت لنا وجـود الفن الروائى العربى ضاربا بجذوره فى عمق التاريخ العربى القديم فما هى معطيات هذا الفن الروائى ؟

٢ ـ المعطيات الروائية العربية القديمة :

اذا استعرضنا ما تم وصوله الينا من خـلال المصفاة الاسـلامية الضـخمة التى لم تسـمح الا بمرور ما يتفق وذوقها العام ، والتى قطعت

كل ما يتعارض مع التعاليم الاسلامية والفكر الاسلامى آمكننا حصر ما تم فى الأدب العربى القديم من ابداع روائى فى محاور عدة ، مع ضرورة أن نضع فى الاعتبار أن ما وصلنا تمت صياغته باللغة العربية التى سادت الجزيرة كلغة رسمية وأدبية معترف بها ، وان الأصول الأولى لهذه الحكايات جرى التداول بها بأكثر من لغة وبأكثر من لهجة من اللغات واللهجات التى سادت الجزيرة منذ مطلع التاريخ . لكن الرواة وهم اسلاميون بالدرجة الأولى قدموا عطاءهم هذا باللغة التى فرضها القرآن وهى لغة المعلقات ولغة الشعر الذى سبق ظهور الاسلام مباشرة . وهذه المحاور هى :

(أ) قصص الجنوب :

ونحن نعنى بها تلك الروايات التى صنعت حول ملوك اليمن الحميريين التبابعة وحول غزواتهم وفتوحاتهم وأبطالهم ، فقد كانت

اليمن أرض حضارة راسخة ، كانت زراعة وأرض سدود وعمران وأرض قصور وحدائق ، فليس من عجب اذن أن تجد القصة مجالا رحبا فيها ، وأن يتناقل الرواة هذه القصص حتى يأتى عصر التجميع فتدون ويحفظها لنا الأدب العربى حتى اليوم بعد أن مرت بالصياغة الاسلامية على يد محمد عبد الملك بن هشام ٠

وسنلاحظ أن ابن هشام روى عن أسد بن موسى وهذا روى عن أبى ادريس بن سنان ، وان هذا روى عن جده لأمه وهب بن منبه ٠

فابن هشام هو الصياغة الاسلامية الأخيرة لسلسلة من الروايات تمتد حتى وهب بن منبه وهو مصدر مهم من مصادر القصص العربية القديمة ٠ ويقف فى تاريخ الحكايات العربية وقفة شامخة لا يدانيه فيها الا زميله عبيد بن شرية الجرهمى راوى أخبار ملوك اليمن الى معاوية بن أبى سفيان ، والا زميله كعب الأحبار

الذى ملأت حـكاياته كتب التاريخ والتفاسـير والأخبار (٤٥) .

وهذه الحكايات تحكى تاريخ اليمن وتواريخ ملوكها ابتداء من يعرب بن قحطان بن هـود النبى ، فى هجرتهم من أرض بابل حتى أرض اليمن (قال وهب : وردت يعرب أرض اليمن) قال وهب فى التيجان (ص ٤٠) من طبعة مركز الدراسات اليمنية : اسم (يعرب) يمن ولذلك قيل أرض يمن وأقام يعرب بها يغرس الثمـار ويجرى الأنهار .

وكان يعرب أول من قال الشعر ودونه وذهب به فى جميـع الأعاريض ومدح ووصف وقص وشبب فتعلم منه اخوّته وبنو عمه حتى وصـل الأمر الى المتعربين ببابل وثمود وطسم وجديس وعملاق ورائش فاستطابوا الشعر وخف عـلى ألسنتهم وراموا قوله فنسج لهم قوله) .

ومن هذا النص يتضح الهـدف القبلى وراء

هذه الحكايات، فيعرب هو اليمن وهو صاحب أهم تراث للعرب وهو الشعر • ولم يقل النص باى لغة قال يعرب الشعر ووزنه ، فهذا يضيع فى ثنايا الحكاية الشعبية ، ولكن المهم أن يثبت هذا الفضل ليعرب ، ثم يغار عاد من يعـرب فيسـير بقومه الى اليمن ، وتبدأ المعارك الأولى بين هود ويعرب من ناحية ، وبين عاد الأولى من ناحيـة أخرى ليقدم لنا القصاص تفسيرا روائيا لقصة عاد التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد) •

وحكاية عاد مع هود طويلة ومتشابكة ومليئة بالحروب والكوارث والشعر أيضا ، ومن خـلال هـذه المعـارك نتعرف عـلى (الأمم البائدة) وقصصها : طسم وجديس فى اليمامة ، وثمـود فى مأرب ، وهروب بنى يافث الى أرض أرمينية (وما خلفهـا من الأرض وما والاها ، وهربت القوط والسكس والافرنج وهم بنو عرجان بن

يافث ولحق بهم أخوتهم الصقالب بنو عرجان بن يافث) فهذا أمر معارك الشعوب المهاجرة من اليمن وكيف غلبت على أمرها فزحفت بعيدا عن أولاد سام ، فهرب أولاد يافث الى الشمال ٠

أما أولاد حام فقد خرجوا الى الشام (وقال وهب : وكان قد تملك بيت المقدس وملك الشام نمرود بن كنعان بن ماريع بن كنعان بن حام بن نوح ، وانه زحف الى بيت المقدس) ٠ فأولاد سام فى اليمن ، وأولاد حام فى الشام وأولاد يافث فى أرض أرمينية وما والاها الى الشمال والمعارك تدور بين هذه الشعوب على أسس عرقية وعصبية جنسية ٠

وما دامت البطولة معقودة لليمن وملوكها فنحن فى سلسلة من القصص عن بطولات أولاد يعرب بن عبد شمس الذى فتح بابل والشام والنيل « فنزل عليه فدعا أهل مشورته ٠ ثم قال لهم انى رأيت ان ابنى مصرا بين هذين

البحرين يكـون صلة بين المشرق والمغـرب فانه يلجأ اليه اهل المشرق والمغرب • قالوا له : نعم الرأى أيها الملك • فبنى المدينة وسميت مصر » • ان حمير مضى (يطأ الأمم ويدوس الأرضين وامعن فى المشرق آبعد من يأجوج ومأجوج الى مطلـع الشمس) •

فالحرب حرب أمة تفتتح العالم المعروف وتهزم أولاد حام فى مصر والشام والحبشة ، وأولاد أرم بن يافث فى بلاد الشرق والشمال • وتتنقل ثمود الى شمال الجزيرة وتغزو مطلع الشـمس ومغربها على السواء • وهذا الغزو يتكرر فى ملك سـبأ وعبـد شـمس وحمـير وشمريرعش والصعب ذى مراثد أو ذى القرنين العربى •

وسنلمح فى هذا استكمالا لاشارات عن قوم عاد وثمود وطسم وجديس وحكاية ذى القرنين، الذى يتقدم القاص العربى فى حكايته ليقـدم نموذجا عربيا للشخصية الأسـطورية العالميـة

التى عرفت بذى القرنين واستمدت عند معظم الشعوب من الاسكندر الأكبر الغازى الاغريقى، وذهب معظم المفسرين الى أنه هوالمقصود بالآيات القرآنية •

ويتقدم القاص العربى هنا ليقدم شخصية يمنية حميرية تقابل الخضر وتفتح العالم حتى تبلغ مشرق الشمس ، ثم تغزو مغرب الأرض حتى مغرب الشمس فيفوز الخضر بالحياة الدائمة حين يغتسل فى عين الحياة ، ويموت ذو القرنين رغم ملكه وجاهه كأى انسان كتب عليه الموت قدر الحياة الدائم • فليست المسألة سرد الأحداث، وانما العمل القصصى يتقدم بمضمونه الانسانى الى جوار تقدمه بحدثه المثير الملىء بالمغامرات وحكايات المردة والسحرة والغيلان وحروب الجن ووصف دنيا العجائب التى يعبرها الأبطال فى فتوحاتهم المختلفة • وسط هذا كله تدخل حكايات الحب والغيرة كقصة مضاض ومى،

وحكايات التيه والضياع كقصة الجرهمى التائه .

ونحن فى الحقيقة أمام مزيج من العطاء القصصى التاريخى والاجتماعى المرتبط بالبقايا الأسطورية . وتغلب أسطورة المكان بشكل واضح على قصص هذه المجموعة اليمنية ، فلا يترك أصحاب هذه القصص مكانا الا وأرجعوا اسمه الى حكاية كاملة يمتزج فيها الخيال بالأسماء التاريخية بالأبطال الروائيين (٤٦) .

وتكفى مراجعة قصة الجرهمى التائه فى عودته الى مكة لنقف على مثل واضح لاهتمام الكتاب بالمكان اهتماما رئيسيا . ويشمل المكان، الجبال والمدن والقصور والآبار والغدران ، كما يشمل أيضا أماكن أثرية لعلها مقابر قديمة لملوك اليمن يديرون حولها الحكايات ويقولون فيها الشعر ، ولعل أبرزها حكاية مقبرة شداد بن عواد

وأبنائه ، وما كتب على الألواح المعلقة فوق توابيتهم ·

وترتبط هذه الأماكن بالكنوز المدفونة ، والثروات التى يبحث عنها اللصوص المغامرون، والطلاسم السحرية التى وضعت لحماية هذه الكنوز ومنعهم من اقتحام القبور مما يوشك أن يكون قريبا من المقابر الفرعونية القديمة ·

ونحن فى الحقيقة أيضا أمام مزيج من المعارف التاريخية والجغرافية والاجتماعية التى تمتزج فيها الحقيقة بالخيال ، وهذه المعارف لا تتعلق بالجزيرة وعاداتها وأماكنها وجغرافيتها وحسب ، وانما هى تمتد لتحاول أن تشمل العالم القديم كله ·

فنحن نرى عادات التنجيم والعيافة والزجر، كما نلمح الفأل والطيرة ، وضرب القداح عند هبل ، والرحلة الى الكهنة من مفسرى الأحلام ، ورجم المرأة الزانية فى حكم لقمان وتقاليد دفن

الموتى ، والطواف بالكعبة ، وبنـاء الأرصـاد لتسكن الريح، والرحلة فى البحر ومخاوفها(٤٧) .. والرحلة فى الصحراء وأخطارها ، والصيد، ومقاتلة الوحوش . ونحن الى جـوار الشـعر نحظى بطائفة كبيرة من سجع الكهان ، وحروب الجان والملائكة والمردة وانسـاب الخيـل وكرام الابل .

ونحن نرى فى الوقت نفسه حديثا عن رجال الغابات وعن الناس الذين لهم آذان الحمير ، أو الذين يعيشون كالقرود فوق الأشجار ، والعراة فى مغرب الشـمس الذين لا يفقهون شـيئا مما يجرى حولهم . والأرض المتجمدة عند نهـاية العالم ، والعين الحمئة التى تغرب فيها الشمس، والقصر الذى يقف فوقه اسرافيل انتظارا لساعة النفخ فى الصور ، وامم السند والهند والأحباش والسودان والمغرب ، وكنوز الأرض من جواهر

وذهب ونحاس ، والفنارات التى تضىء بالليل لهذه السفن ٠

وتصل بعض المعلومات الى حد الحقيقة كقوله ان حمير هزم الأحباش على النيل فتتبعهم حتى بلغ بهم الى البحر المحيط من المغرب ، فأذعنوا وأجرى عليهم اتاوة يؤدونها كل عام ، فدرب الحبشة فى غرب الأرض سبعة أشهر فى سبعة أشهر ٠ ثم رجع عنهم على النيل الى مصر فتزود من مصر (٤٨) ٠ آخر الأمر ان هذه المجموعة من المعلومات أثرت بعد هذا فى كتب التاريخ وكتب الرحلات واكتب وصف البلدان ، فامتلأت هذه الكتب بالكثير مما جاء فى الروايات العربية مما بعضه حقيقي وبعضه من وهم الخيال واختراعه، وبعضه مما أوحت به حرفية العمل الروائى ، وما يتطلبه من اثارة واغراب لشد انتباه المتلقى وامتاعه ٠٠ وقد ضج ابن خلدون من هذه المعلومات التى يخرج بعضها من سياق

المنطق والعقل والتى امتلأت بها كتب المؤرخين الكبار قبله، وأخذ على هؤلاء المؤرخين تصديقهم لما جاء فى هذه الروايات من حكايات ومعلومات (٤٩) .

وقد فات ابن خلدون كما فات المؤرخين من قبله أن هذه المعلومات لم ترد فى سياق المعلومه العلمية . وانما هى جاءت ضمن هذه الأعمال الروائية التى يباح فيها الاختلاق والكذب العلمى طالما اقتضى هذا السياق الفنى للعمل الروائى (٥٠) ، وليس ذنب هؤلاء المؤلفين الروائيين ان أعمالهم الروائية عوملت باعتبارها وثائق تاريخية أو علمية يستشهد بها ويقتبس منها . وأوقع الجميع فى هذا الحرج التزام الروائيين القدماء باطار فنى ثابت هو توثيق القول بذكر من نقل عنهم من رواة مما اشتبه بالمنهج العلمى الذى التزم به علماء الحديث ورجال الأخبار فى توثيق الأحاديث النبوية ،

أو الأخبـار التاريخيـة • وقد فات الجميع ان هناك فرقا جوهريا بين الاطار الروائى المستند الى النقل عن راو وبين المنهج العلمى المعتمد فى توثيق المتن بتوثيق السند •

ففى الحالة الأولى يذكر الراوى الجديد اسم الراوى السابق له ، ومعروف ان الراوى الشعبى هو بذاته مؤلف النص الذى يقدم ، بمعنى انه يتصرف دائما فى روايته الجديدة بما يلائم روح العصر وذوقه ، وبما يقتضيه السياق المروى فى تفاعله مع جمهور المستمعين من تغيير أو حذف أو اضـافة ، وكذلك بما تـوحى به الأحـداث الاجتماعية والسياسـية المعـاصرة من اسـقاط سياسى أو اجتماعى على ابطال العمـل الروائى القديم بحيث تصبح الرواية الشعبية الجـديدة متكاملة ومتلائمة مع عصر الراوى وذوق العصر وأدواته الفنيـة الروائيـة المتطـورة • فذكر الراوى الجديد لمن نقل عنه روايته أو حفظها

عنه ، تحديد النسخة الشعبية التى آخذ عنها ، فغيرها من النسخ تخالفها بالقطع ، وغير اسناده من الرواة قد جاء بها بطريقة تخالف الى حد ما من حفظها من الرواة الآخرين •

ويلجأ القصاصون الى جملة معروفة فحين يضيف القصاص صياغته الجديدة يذكر عبارة (قال الراوى) قبل حديثه ، وحين ينقل نقلا حرفيا عمن سبقه من رواة يذكر اسم من نقل عنه فيقول (قال وهب) مثلا أو قال (ابن اسحق) أو قال (كعب الأحبار) ليؤكد أن ما ذكره بعد هذا تقع ملكيته الفنية لهذا الراوى الذى نقل عنه كما تقع مسؤوليته الفنية عليه أيضا •

وقد وضح هذا فى رواية ابن هشام عن وهب فى كتاب التيجان ، كما وضح أيضا فى روايته عن ابن اسحق فى كتاب السيرة النبوية • ففى الكتابين معا تتضح الصياغة الاسلامية الأخيرة للنص على يد ابن هشام •

كما تتضح الأجـزاء المـروية عن الـكاتبين الروائيين اللذين نقل عنهما نقلا قصصيا فى كلا الكتابين • ويغدوا هذا أكثر وضوحا حين يناقش ابن هشام جزئية أوردها أحدهما أو يقدم بديلا عنها رواية أخرى لهذه الجزئية من راو آخر ، بينما الأمر فى الحالة الثانية تأكيد لدقة الحديث أو الخبر بذكر المصدر السابق فى الرواية لتأكيد معاصرته لمن روى عنهم وصدقه فى الرواية (٥١) وليس الأمر فى حالتنا هكذا •

ولو ان المؤرخين عاملوا هذه النصوص الأدبية من هذا المنطلق لوفروا على أنفســهم الكثير من الاتهامات ومنها اتهام ابن خلدون لهم • كما ان الحكومة الأدبيــة لو نظرت الى الأمر من هــذه الزاوية لتأكدت انها تحاكم الفن بمعيار العلم وان هذا الخطأ ، وأن ما سموه الاسرائيليات وما وجهوه من تهم الى الرواة ، قام أساسا على انهم يتوقعون منهم اخبارا علميا ، بينما هم يقدمون

فى الحقيقــة روايات فنية ذات رســالة آخــرى تماما ·

ونحن نجد أنفسنا نتيجة لهــذا أمام أعمال جمعت بين مواد من أكثر من مرحلة تاريخيه ، ومن أكثر من بيئة من البيئات العربية · فتعاقب الرواة ، واحساسهم بالحرية الكاملة فىالاضافة والخلق الجديد ، خلق لدينا ما يسمى بالتراكم الفولكلورى فى النص · وهو تلك البقايا التى استمرت فى النص من اضــافات عصر وراو ، والى اضافات عصر وراو ، وتدل على هذا العصر وتترك صــورا من ملامحــه فى النص المستمر والباقى ·

وسنجد شــاهدا على هذا من حكاية وهب عن ولاية حمير اذ يتحدث عن اخراجه لثمود من اليمن « فأنزلهم آبلة من أرض الحجاز فعمروها من آبلة الى ذات الاصاد الى اطراف جبل نجد »· ،

ثم يضيف لنا القصاص نهر ذات الاصاد ثم يقول : « وفى ذات الاصاد كان السبق بين قيس ابن زهير العبسى وحذيفة بن بدر الفزارى ، وفيها حبس فرس زهير داحس فقال فى ذلك قيس شعرا » (٥٢) ثم يورد شعر قيس •

فالقفز هنا بين زمن حمير وزمن قيس بن زهير، والقفز أيضا بين اليمن والحجاز استدعته جملة فى السياق ، واستدعت معه ذكر ايام العرب وحروبهم ، وحرب داحس والغبراء وشعر قيس فى واقعة من وقائع الحرب • ونميل الى الظن أن وهب بن منبه لا علاقة له بهذا الجزء من السياق القصصى ، وانما هو اضافة راو جاء بعده أو اضافة ابن هشام نفسه الذى كانت أيام العرب جزءا من ثقافته القصصية أيضا •

وهذا الانتقال فى الزمان والمكان لا علاقة له بالحقائق التاريخية ، وانما له علاقة بالحافظة الروائية والموروث القصصى عند مؤلف الحكاية

أو راويها الأخير • والشواهد على مثل هذا كثيرة جدا ، ففي الحديث عن قبر عاد واكتشافه تقفز الى الحديث عن اللصوص الذين حاولوا اقتحام قبره ، وهذه الاضافة تأتى بنص صريح على القصد القصصى منها اذ جاءت بعنوان «قصة المغارة التى فيها شداد بن عاد والصعاليك الثلاثة حين دخلوها وما جرى عليهم (٥٣) •

والعنوان نفسه له دلالة على اضافة قصاص قال لمن روى القصة الأولى ، وجاء فى الهامش (قصة المغارة فيه مزيدة) مما دل على أنها وجدت فى نسخ من الكتاب ولم توجد فى نسخ أخرى ، أو بمعنى آخر رواها راو للقصة العامة وأغفلها راو آخر • كما ان النص ينسبها بوضوح الى مصدر جديد اذ هو يعود بها الى عبيد بن شرية الجرهمى الذى يقول (حدثنا شيخ من أهل اليمن بصنعاء عام الردة وكان معمرا عالما بملوك حمير وأمورها قال لنا) ثم يسرد

القصة ، فالاضافة هنا اسلامية وتمت بعد عام الردة ٠

واضافة القصة أمر طبيعي لعمل يتجه الى الرواية أساسا لا الى التاريخ ٠ وهذه الظاهرة متكررة وموجودة فى التيجان وفى أخبار ملوك اليمن وفى السيرة النبوية على السواء ٠ وهى من الكثرة بحيث تكفى الاشارة اليها هنا ٠ الا انها تؤكد وجود الرواة المتتابعين لهذا العمل القصصى ، ووجود اضافتهم وتحويراتهم فى العمل الروائى ٠

ولعله يجدر بنا أن نضيف عبارة وهب عند حديثه عن غزو حميرللمغرب اذ يقول : «ثم مصر فى المغرب حتى بلغ الى البحر المحيط ثم أجرى على القبط الخراج » فكلمة الخراج هنا اسلامية لا شك ، فقد كان يستعمل قبل هذا كلمة الاتاوة للدلالة على المعنى نفسه ٠

هذه الحكاية اذن صورة للأدب الروائى

العربى من حيث المنهج ومن حيث الموضوع ومن حيث المضمون الفنى أيضا الا أنها صورة لهـذا الأدب فى شكله الشعبى المتداول مشافهة ، وأول تدوين له تم فى عصر التجميع وعلى يد مجموعة اسلامية لا شك ان ابن هشام فى رأسها .

وهى كما قلنا مواجهة عنصرية بين الساميين من أبناء الجنوب وبين غيرهم من شعوب الأرض من أولاد أرم بن يافث بن نوح وأولاد حام بن نوح ، تحكى أخبار غزواتهم لهـذه الشـعوب وانتصارهم عليها ، وهى بهذا تسـجيل روائى شعبى للتاريخ العربى القديم ولبقايا ما صاحبه من أساطير وملاحم وحكايات تقبل من باب العمل الدرامى الكامل كما فى قصة ذى القرنين وقصة مضاض ومى وغيرهما كثير .

وهو نمط من التأليف درج عليه الروائيـون العـرب فى تجميع الأعمـال القصصية فى اطار واحد ، يسمح بالاسـتطراد والحشـو والرجوع

والعودة نشاهده فى ألف ليلة وليلة مثلا ، كما نشاهده فى صياغة ابن المقفع لحكايات الحيوان فى كليلة ودمنة وقد استدعت هذه الروايات وسمحت بها آيات القرآن التى تحدثت عن هؤلاء الأبطال القدماء ، وما يستمد من تاريخهم من عبر، وعن الأنبياء الذين جاءوهم برسالة السماء وما دار بينهم وبين هذه الشعوب من أحداث أو عن الأمم والشعوب البائدة ٠

وهذا الاستدعاء الاسلامى أوجد الصياغة الاسلامية الأخيرة لهذه الحكايات ، وان كانت هذه الصياغة سمحت للكثير من بقايا الأسطورة القديمة أن تترك آثارها وبصماتها على هذه الأعمال القصصية الملحمية ٠ كما سمحت بظهور آثار يهودية ومسيحية كنوع من التراكم الفولكلورى المألوف فى الأعمال الشعبية الروائية ٠

الا أن الهدف منها ليس هدفا دينيا بالدرجة

الأولى ، وانما هو هدف عنصرى كما قلنا يريد أن يثبت فضل الجنوب فى مقابل الفضــل الذى ناله الشمال بنزول الرسالة الاســلامية فــيه ، وانعقاد البطولة المطلقة فيها لمحمد (ص) .

ونحن نسوق دليلا على هذا ما جاء فى حديث معاوية مع عبيــد بن شرية الجــرهمى (٥٤) اذ يأخذ عليه معاوية الاشادة بذكر اليمن وقحطان وتجاهل أخبار الشمال وعدنان فيقول معاوية : « حدثنى يا عبيد كيف كانت الجــاهلية باليمن ولم يكن لبنى معــد بن عــدنان معهم ذكر ولم يظفروا منها بطائل ؟ قال : يا أمير المــؤمنين ، ومثلك يجهل هذا ؟ وانما كانت معد بالأمس ، وكانت اليمن وملكت ولم يكن معد ولا عدنان ولا اسماعيل ، وانما اليمن من ولد هود واسمه بالسريانية عابر وبينــه وبين ابراهيم عليــه السلام ثمانمائة سنة ، وعاش صلوات الله عليه مائتى سنة ، وقيذار عاش مائة وأربعين سنة ،

ومضر من ولد قيذار بن اسماعيل بن ابراهيم فكيف حتى ولد عدنان ومعد ونزار ومضر ، وكيف حتى شعبت الآثار وانتشروا فى البلاد » ٠ فمعاوية كشمالى يدهش لعصبية عبيد فى ذكر ملوك اليمن دون ملوك الحجاز ، وقحطان دون عدنان ، وعبيد يؤصل التاريخ ويذكر أن هذا الحديث انما هو روايات عن ملوك سبقت بزمان عدنان وأولاد عدنان ٠

ويؤكد المعنى العنصرى قول معاوية فى الحديث « وبلغنى عن حمير وسيرها فى البلاد وملكها فى مشارق الأرض ومغاربها وكيف كان ذلك تسخر العرب والعجم » ٠

فالحكايات اذن عن تفوق اليمن كما كان ، تفوق الساميين أولاد هود بن سام الذى سبق أبناء الشمال بمئات السنين وتفوق على ملوك الشمال من بطون سام الأخرى ٠ ويهمنا أن نثبت هنا أن القصص اليمنى هذا كان نوعا من الملاحم

التى تشيد بأبطال اليمن القدماء ومعـاركهم ٠
وأن هذه القصص وصلت فى محتواها الفنى الى
مرحلة قريبة من مرحلة الدراما من حيث معالجة
موقف الانسان من القدر ، وقسوة تحكم القـوى
الغيبية فى مصير الانسان ، وعبثية الحياة تحت
ضغوط هذه القوى ٠ وأنها وصلت فى شـكلها
من حيث الصياغة الى مستوى من التعبير بالحوار
والسرد والمونولوج الداخـلى ووجـود المقـدمة
والحبكة والنهـاية الى حيث اقتربت من تكوين
شكل روائى فنى شبه متكامل وخاص بها(٥٥)٠
وانها وصلت بكم الشعر الذى احتوته ، والذى
استخدم فى الحوار والتعبير عن الأشجان ، وفى
السرد القصصى الى مرحلة الملحمة الشعرية التى
فقدنا أصلها المتكامل ، وبقيت لنا منـه هـذه
البقايا المتفرقة فى أجزاء القصص المختلفة ٠
ولهذا فقد حظيت بعناية الكتاب ، وظهرت فى
كتب عدة بعضها يحكى التاريخ القصصى لليمن

بذكر ملوكها ومغامراتهم ، وبعضها يعنى بذكر تاريخ اليمن عن طريق ذكر قصورها وما تبقى من مدائنها ومبانيها، وبعضها يعنى بذكر تاريخ اليمن عن طريق التركيز على تفسير ما ورد من اشارات قرآنية عنها ..

ولكننا ولا شك أمام كـم هائل من القصص يحتاج الى دراسة فنية نقدية ، كما يتطلب من كتاب الرواية والقصة والمسرح الالتفـات لخلق البعد العربى فى أعمالهم القصصية والدراميـة ان لم تصل بهم الى عهـد الأسـطورة العربيـة القديمة فهى تطـرق لهم ومعهم أبـواب هـذه الأسطورة من باب العلاج الفنى القديم لها .

ب ـ قصص الفتوة :

ونعنى بها قصص الحروب التى استعرت قبل الاسلام بين القبائل العربية المختلفة فى صراعها على المال والماء والقوة . وهـذه المعارك عرفت

باسم أيام العرب ، وامتلأت بها كتب الأدب ، وأوردها الأصمعى وأبو عبيدة معمر بن المثنى وهشام الكلبى ، وعنهم وعن غيرهم نقلت كتب الأخبار والأدب بعد ذلك (٥٦) ٠

وعلى الرغم من أن الرسول (ص) نهى عن حديث الجاهلية الا أن أخبار هذه الأيام تسللت مع تسلل الشعر الجاهلى الى كتب الأدب والتاريخ التى ألفت فى العصور الاسلامية ٠

ولا نستطيع أن نجد كتابا من كتب الأدب والتاريخ يخلو من ذكر يوم أو آخر من الأيام لما جاء فيها من شعر الشعراء المعروفين ومنهم أصحاب المعلقات ، ولما لها من دور بارز فى فهم هذا الشعر وادراك أسباب انشاده وقوله ٠ ولعل الرسول الكريم (ص) يعنى بالنهى عن أحاديث الجاهلية أخبار هذه الأيام بالذات ، فانها سجل للعداوات القائمة بين القبائل والبطون للقبيلة الواحدة ٠

وهى فى الوقت ذاته تذكرة دائمة بعادات وثنية وجاهلية جاء الاسلام ليقضى عليها وينتزعها انتزاعا من نفوس العرب المسلمين . وسنلاحظ أن القرآن رغم ذكره لأخبار الشعوب البائدة وقصص الأنبياء لم يتعرض لهذه الأحداث التى ملأت الجزيرة العربية بقرقعة السلاح وايقاع الشعر وسمر الرواة للمتحلقين حولهم فى مضارب الخيام .

يقول النويرى : « قيل لبعض الصحابة رضى الله عنهم : ما كنتم تتحدثون به اذا خلوتم فى مجالسكم ؟ فقال : نتناشد الشعر ونتحدث بأخبار جاهليتنا » (٥٧) فالأيام اذن لم تكن مجرد أخبار لأحداث ، وانما كانت مجال مذاكرة وحديث اذا خلا بالناس المجلس ، وهى كالشعر فى المنادمة والامتاع وحسن المسامرة .

والناس لا يتسامرون بأخبار من قتل ومن

حارب ومن هزم أو فاز ، وانما هم يتسامرون بالحكايات والقصص المبنية على هذه الحوادث والأخبار • وقد عامل رجال الأدب والأخبار هذه الأيام معاملة الأخبار التاريخية شأنهم في هذا شأن كل ما اتسم بالحديث عن الماضى ، فأدخلوها فى دنيا الأخبار وأخرجوها من دنيا القصص ، • على الرغم من أنه من الواضح أنها أعمال مروية ، وقصص تحكى مبنية على وقائع معروفة ، ولكنها ليست الوقائع بحقائقها التاريخية وحسب ، وانما هى الوقائع بما أضاف اليها القصاص من اضافات روائية ومن شعر ومن عطاء فنى خالص •

وشاهدنا على هذا ما يذكره الرواة ، وما تذكره كتب الأدب من ايراد (وقعة طسم وجديس) بين أيام العرب • فهما معا من الشعوب البائدة ، والقصة قديمة والواقعة موغلة فى التاريخ فطسم (بن لاوذ بن ارم بن سام بن نوح)

وجديس (بن عابر بن ارم بن سام بن نوح) وهم العرب العاربة • ولا يعرف أحد بم كان يتحدث طسم ولا جديس ، لعلها اللغة الحميرية القديمة ، ولعلها اللغة المسمارية ، ولكنها ليست لغة الأدب فى العصر الاسلامى أو بمعنى آخر ليست لغة قريش الأدبية المتعارف عليها •

فاذا ما قرأنا هذه القصة فى كتب الأخبار والأدب وجدنا أنفسنا أمام قصة صيغت عربية فصيحة ، من حيث التراكيب اللغوية ، ومن حيث التراكيب البلاغية ، ومن حيث التراكيب الشعرية فى آن واحد •

والقصة تجمع بين السرد والحوار الذى يصل بايقاعه فى أحيان كثيرة الى مرتبة سجع الكهان ، وكأن كاتب القصة أراد أن يقترب من روح اللغة الأدبية فى هذا العصر السحيق • ثم هى تستعمل الشعر فى مواطن الاشارة والحكمة •

والأحداث فى القصــة متتــابعة وفى قمــة التشويق زوج وزوجة اختلفا حول أيهما يحضن الولد بعد أن طلق الزوج زوجته فيحتكمان الى الملك ، فيحكم حكما جائرا وغريبــا بأن يكون الولد فى غلمانه هو ، فهجته الزوجة بشعر تندد بظلمه ، فغضب الملك وكان من طسم « وأقسم انه لا تهدى عروس فى جديس لبعلها حتى يكون هو الذى يبدأ بها قبل زواجها » ، الى أن افترع عروسا لم ترض بهذا الذل فخرجت الى قومهــا تحرضهم وتوقظ نائم الرجولة والنجدة فيهم ، يحكى عارها وعار كل نســاء قبيلتها ، ويجتمع جديس ويتحاورون ثم يدبرون الغــدر بطســم التى تفوقهم رجالا وســلاحا . ويتم لهم الأمر ويقتلون طسما كلها الا رجلا يستنجد بحســان اليمانى الذى يرسل معه جيشا نجدة له وغضبا للغدر بملكهم ، ويســير الجيش قاصــدا اليمامة حيث تقيم جديس :

وهنا قصة زرقاء اليمامة ورؤيتها للجيش وتحذيرها لقومها ، وعدم تصديقهم لها وفتح حسان لليمامة ومصرع الزرقاء ، وهى قصة غدت من المأثورات المشهورة فى الأدب العربى . ذكرها الشعراء المتأخرون فى أشعارهم ومنهم الأعشى . كذلك حفلت بها كتب الأخبار والمسامرات(٥٨) .

وقد وقفت عند هذه القصة من أيام العرب لأنها أشبه بالأسطورة التفسيرية لكيف بادت طسم وجديس ، ووضعت القسوة والطغيان فى أولها ، والغدر فى وسطها والعقاب فى آخرها . فاكتملت عناصر القصة من ناحية ، وقدمت تعليلا روائيا لفناء الشعبين البائدين يرضى ويريح ، ويحقق العبرة الأخلاقية فى الوقت ذاته تحقيقا روائيا أى من غير وعظ أو تنبيه .

واذا ما تتبعنا قصص الأيام فسنجد العنصر الانسانى هو الغلاب فى كل قصة ، فالحرب لا تبدأ عفوا دائما ، وانما هى تبدأ من منطلق

ضعف انسانى يحدث الخطأ أو تؤدى اليه الغيرة كما فى يوم منعج حين قتل رياح الغنوى شاسا ابن زهير العبسى لأنه رأى امرأته تنظر اليه وهو يستحم وهو (كالثور الأبيض) ، ويؤدى قتل شاس الى معارك وأهوال تنتهى بنصر غنى على عبس • وفى يوم النفرات يهين زهير بن جذيمة العبسى امرأة عجوز من بنى عامر ، فتثور الحرب بأحداثها وتفاصيلها وشعرها وحوارها وحبكة القصة فيها •

وتؤدى واقعة الى واقعة ، ويؤدى يوم الى يوم، وتلعب العادات العربية دورها المهم فيصبح الأخذ بالثأر ، محورا من المحاور الرئيسية التى تدور حولها الأيام • كذلك تلعب الكهانة والعرافة دورها كذلك ، ويلعب الفال والزجر والعيافة دورهم أيضا • كما تبرز خلقيات العرب من كرم وشهامة واباء ، ونصرة للجار وصاحب صلات الدم والرحم • ويورد شهاب

الدين النويرى فى نهاية الأرب فى فنون الادب قالة ينقلها دون سند فيقول : « وقال بعضهم : وددت لو أن لنا على اسلامنا كرم أخلاق آبائنـــا فى الجاهلية » (٥٩) .

ولكنهـــا أيضـــا تحمـــل غلظة الطبع وجفـــاء السلوك وحـــدة العصبية القبليـــة الطبقية التى كان لابد من القضاء عليها لتتبلور قبائل الجزيرة آخر الأمر فى توحد سياسى وفكرى ، يسمح لها بالقيام بالدور الذى يعده الاسلام لأبناء الجزيرة المؤمنين به فى نشر الدعوة الجديدة حول الجزيرة فى كل اتجاه .

والواقع أن قصص القـــوة هـــذه وما كانت تعكسه من معارك بين قبائل الجزيرة تحمل فى طياتها الارهاصات بالدور الجديد لهذه الجزيرة وأبنائها . فما نلبث أن نجـــد فى هـــذه الأيام معارك لأبناء الجزيرة ضـــد قوى خارجيـــة لعل أشهرها يوم ذى قار ، وهو معـــارك عدة نشبت

حول ذى قار بين قبائل العرب وبين العجم ، بعد أن قتل كسرى النعمان بن المنذر ملك الحيرة العربى ، فتكاتفت القبائل العربية فى معارك مخيفة لهزيمة الفرس وانهاء نفوذهم على الجزيرة العربية .

وينقل شهاب الدين النويرى أيضا عن النبى (ص) قوله عن ذى قار : « اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبى نصروا»(٦٠) ففكرة المعارك الداخلية التى تنقلها هذه الأيام وحكاياتها ، انما تقود الى معارك يتوحدون فيها ضد عدو خارجى ، ونحن نرى أن هذه الحكايات وما كانت تثيره من احساس بالانتماء والغيرة على القبيلة ، انما كانت الوقود الفنى الذى يقود تدريجا الى ترسب معنى الانتماء العام الى المعنى الوطنى القومى

وسنلاحظ أن معارك المدن ، أو المعارك الضارية التى نقلتها لنا الحكايات اليونانية

القديمة عن قتال مدن اليونان ، وحروب الثأر والتطاحن بين هذه المدن بعضها ببعض ، سبقت التوحد الذى خلقه الاسكندر حين قاد هذه الأمة المفككة المقاتلة ، أعنى اليونان القديمة ، ليفتح بها العالم القديم كله .

كما أننا سنلاحظ هذه المعارك نفسها بين مدن الرومان القديمة وما صاحبها من دسائس وغدر واغتيالات تنقلها الحكايات المتداولة عن هذه المرحلة قبل أن تتوحد روما وتطغى على اليونان وتفتتح بدورها العالم كله . ثم تتكرر الظاهرة نفسها مع العرب، حين تقدم لنا حكايات الأيام هذه ، معارك القبائل الطاحنة فى الجزيرة العربية قبل أن تتوحد الجزيرة تحت راية الاسلام وتسيطر على عالمها كله وتقوض ملك كسرى وتحطم الامبراطورية الرومانية القديمة .

فحكايات الفتوة العربية هذه تحمل فى طياتها عملية المخاض التى تؤدى الى وجود نعرة

قومية تعد لها بتثبيت معالم الشخصية العربيه ، والعصبية للبطن ، ثم القبيلة ثم الوطن كله ، ثم المعنى القومى الدينى الذى يحمله الاسلام الموحد لهم ، والضارب بهم نحو وحدة المنطقة بأسرها .

ان هذه الحكايات ليست مجرد أخبار لأحداث ، ولكنها أعمال فنية بنيت على وقائع الأحداث المضطربة التى سادت الجزيرة ، واستطاعت أن تبلور فى طيات وجودها الروائى معالم الشخصية المتشابهة والواحدة فى الانسان العربى .

واستطاعت أيضا أن تبلور خلقياته وأهدافه وانتماءاته . كذلك استطاعت أن تثبت عنده احساسه بذاته وقدراته وقوته . وبمعنى آخر فهى أبرزت قوة الفتوة التى تمور داخل الأمة والتى تستعد لتنطلق الى هدف جديد محدد ، لو

وجد القائد ، ولو وجد الهدف ، ولو تحددت الرسالة وجاء الاسلام ليفى بكل هذه التطلعات.

فهذه الحكايات اذن لعبت دورا هاما فى تكوين ذخيرة روائية مهمة تروى فى أسمار الجاهلية مثلها مثل الشعر ، كما لعبت دورها فى التكوين النفسى والوجدانى لمتلقيها العربى مثلها مثل الشعر تماما .

واذا كانت حكايات الجنوب القديم تمثل الصراع العنصرى وفكرة التفوق التاريخى القحطانى ، فان هذه الحكايات تمثل الصراع القبلى وفكرة تفوق الانسان الشمالى وفتوته فى مقابل المجموعة الأولى من الحكايات اليمنية التى تتحدث عن بطولة الملوك وكبار الفرسان الجنوبيين .

ج ـ قصص الأنبياء :

ونقصد بها هذه المجموعة من الحكايات التى

امتلأت بها كتب التفسير ثم كتب التاريخ بعد ذلك ، واستدعتها اشارات القرآن الكريم الى الأنبياء وأحداثهم مع شعوبهم فى الدعوة الى الدين وعبادة الله ، وما لاقاه هؤلاء الأنبياء من عنت مع شعوبهم . ولا شك أن هذه القصص كانت معروفة فى الجزيرة قبل الاسلام . فقد كان فيها دينان سماويان بكل ما يتعلق بهما من كتب مقدسة وتعاليم وحكايات رسلها وقصص كفاح هؤلاء الرسل .

كما أنه لا شك في وجود دين ثالث يمثله الحنيفية أو اتباع الدين القديم، أو دين ابراهيم الخليل . وهؤلاء جميعا كانوا يعيشون على زاد ضخم من حكايات وقصص لها علاقة بالعقيدة وأصحابها . ولذلك سهل على المفسرين أن يضيفوا الى الاشارات القرآنية عن الرسل والأنبياء والأديان الكثير مما وعته الحافظة من هذه القصص .

ولا شك أن الكثير منها لم تكن مجرد أخبار تاريخية تسجيلية وانما كانت العطاء الوجدانى لأصحاب هذه الأديان كلها تجاه الأحداث التى تضمنتها سير أنبيائهم ورسلهم ٠

وكانت الاضافات التى حلق بها الخيال أمام أخبار المعجزات والخوارق من ناحية ، وأمام الكوارث التى حلت بالكفار والرافضين من ناحية أخرى ٠ نذهب الى أن هذه القصص لم توجد بعد نزول القرآن ، وانما دونت فقط على أيدى المفسرين وأصحاب كتب التواريخ بعد نزوله ، وان كانت موجودة قبله ومعروفة عند أصحابها وعند عامة العرب على السواء (٦١) ٠

ونذهب أيضا الى أن هذه القصص وجدت بغير اللغة العربية وان معظمها ترجمه الرواة الى هذه اللغة من قبل لتداول عامة العرب ٠ ثم أعاد المسلمون ترجمته عن مظانه المكتوبة بعد ذلك ٠ وقد تنبه المسلمون منذ البدء الى أن هذهالقصص

ليست آخبارا تاريخيا بقدر ما هى بقايا شعبية قصصية لما تبقى فى ذاكرة أصحابها من حكايات الرسل والأنبياء ٠

ويقول صاحب الفهرست : « قال محمـــد بن اسحق : قرأت فى كتاب وقع الى قديم النسخ ، يشبه أن يكون من خزانة المأمون ، ذكر ناقله فيه أسماء الصحف وعددها والكتب المنزلة ومبلغها ٠٠ وأكثر الحشوية والعوام يصدقونه ويعتقدونه فذكرت منه ما يتعلق بكتابى هذا » (٦٢) ٠

فهذه الحكايات ضمنتها كتب منسوخة نقــلا عن الرواة القدماء ، وابن اسحق لا يحترم ما بها احتراما علميا ، فهى تستهوى الحشوية والعوام ولا تريح دقته العلمية ، فينتقى منها ويحذف ٠ ولكن هذا الكتاب نفسه يقرؤه ابن اسحق النديم فى العربية مترجما عن لغة أخرى غيرها ٠

والمترجم هو أحمد بن عبد الله بن سلام مولى هرون الرشيد ، ينقــل عنــه صاحب الفهرست

قوله : « ترجمت هذا الكتاب من كتاب الحنفاء وهم الصابيون الابراهيمية الذين آمنوا بابراهيم عليه السلام وحملوا عنه الصحف التى أنزلهــا الله عليه • وهو كتاب فيه طول الا أنى اختصرت منه مالابد ليعرف به سبب ما ذكرت من اختلافهم وتفرقهم ، وأدخلت فيه ما يحتاج اليه من الحجة فى ذلك من القــــرآن والآثار التى جاءت عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وعن من أسلم من أهل الكتاب منهم عبد الله بن سلام ويامين بن يامين ووهب بن منبه وكعب الأحبار وابن التيهان وبحيرا الراهب ••) •

هنا اعتراف كامل بأن الترجمة لم تقدم كما هى وانما اختصرت ، وحصلت بعدها مراجعات اســلامية مســتعينة بالقرآن وأقوال الرســول والصحابة ، ثم وضعت اضافات بالاستعانة بمن أسلم من أهل الكتاب • فهذه الحكايات اذن تمت فى العصر الاسلامى على هذه المراحل المتتالية •

أما الترجمة فينقـــل صـــاحب الفهرست قول أحمد بن عبد الله بن سلام .. « ترجمت صدر هذا الكتاب والصحف والتوراة والانجيل وكتب الأنبياء والتلامذة من لغة العبرانية واليونانيــة والصابية وهى لغة أهل كل كتـــاب الى اللغــة العربية » (٦٣) ..

وقد استتبع نقل هذه الكتب الى العربية معرفة ما بها من أسفار ، وما تحوى هذه الأسفار من حكايات وقصص تتعلق بأنبيـــاء بنى اسرائيـــل والنصـــارى والصـــابية كما سماهم ابن ســـلام المترجم .

وهذه الحكايات تبدأ منذ بدء خلق آدم وحواء وقصتهما فى الجنة مع ابليس وطردهما منها ، ثم أولاد آدم ، ثم الأبناء من ادريس ونوح وهود وصالح الى أن تصل قصة ابراهيم وحكايته مع النمرود وقصة لوط واسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وذى الكفل وشعيب ، ثم ندخل الى قصة

موسى وخروج اليهود من مصر بما فيها حكايات موسى مع فرعون وسحرته ، ثم تسير القصة مع بنى اسرائيل وأبناء بنى اسرائيل وحكايات داود وسليمان وعلاقة سليمان بالجن وقصة سليمان وبلقيس الى خراب بيت المقدس وأخبار شعيا وارميا وذى النون وزكريا ويحيى ومريم وعيسى •

وندخل الى قصة عيسى كاملة مع اليهود ثم الحواريين •

وليست هذه الحكايات مجرد سرد تاريخى موثق لحياة هؤلاء الأنبياء من آدم ، وهو أول الأنبياء ، الى عيسى وهو النبى الذى يسبق محمد (ص) آخر الأنبياء • فليس فيما بين أيدينا من مراجع تاريخية ما يمكن أن نوثق عليه هذه الحكايات التى اعتمدت اعتمادا كليا على الكتب المقدسة التى ذكرها ابن سلام اضافة الى ما جاء به القرآن «مصدقا لما معهم» فالقصص

هنا قصص دينى تماما ، والتــاريخ هنا تاريخ دينى تتابع فى سرده هذه الكتب السماوية ٠

وهــذه الــكتب ليست بالدرجة الأولى كتب تاريخ أو توثيق تاريخي ، وانما هى كتب نزلت لهدف الهداية الى الدين ، وهدف وضــع العبرة و (القول الحق) فى كل حكاية ليهتــدى بهــا الناس وليعرفوا عبرتها ومغزاها ٠

ومن هنا كان الوقوف فى هذا التاريخ عــلى الأنبياء والرسل من أصحاب المواقف المهمة فى مجال العبرة والمغزى ، الى جوار الأنبياء الذين رفعوا لواء الدين وخاضوا غمار المعارك ضــد الكفار ٠ فنحن أمام مزيج من أحداث التبشــير بالدين السماوى٠ ونحن أيضا أمام أحداث مهمة تضفى على هذا الدين من المعــانى والايحــاءات ما يزيده عمقا ووضــوحا ٠ فابراهيم وصــالح ونوح وهــود وموسى وعيسى ويحيى بن زكريا يعانون من أجل نشر الدين ويواجهون الــكفر

والردة بدعوة الحق ، وتأييد الله وقواه التى تدمر الأعداء الكفرة من ناحية ، والتى تنصر الأنبياء من ناحية أخرى بامدادهم بالقوى المعجزة لهم ، والصاعقة لأعدائهم ٠

ولكن داود وسليمان ويونس وأيوب ويوسف يمدون بقصصهم عمق المغزى والدلالة للحكاية الدينية ٠ وهذه الحكايات منذ البدء تحدد المحور الذى تدور فيه كل حوادثها ، فهى معارك دائمة بين الله ومن آمنوا به من الأتقياء والمؤمنين، وبين ابليس او الشيطان ومن أغواهم فاتبعوه من الكفرة والمشركين ٠ منذ قصة الخلق نفسها ونحن أمام هذا المحور ٠

فالانسان مخلوق من طين الأرض ومن روح الله ، وفى داخله هذه المعركة الدائمة بين الروح والجسد ٠ وقد سجد له كل الملائكة الا ابليس أبى واستكبر ، وغدا منذ هذه اللحظة عدوه

المبين ، يتسلل الى داخله ، ويوحي له بما فيه دماره وهلاكه . والعصيان في الجنة اول انتصارات ابليس على الانسان ، ومصرع هابيل على يد أخيه قابيل ثاني هذه الانتصارات .

وينحاز البشر الى ابليس يعبدونه ويطيعونه من دون الله ، ويتوالى الأنبياء ليعيدوا الى الانسان صوابه واتزانه ورؤيته الحقيقية لغواية ابليس ويحاولوا برسالات السماء اعادته الى الله وطرد ابليس من حياته .

وما دمنا في اطار الدين فنحن أمام الشياطين والجن ، ونحن أمام الملائكة وأولياء الله . ونحن أمام معارك طاحنة بين قوى أقوى من قوى الانسان ، فتدمر الريح العاتية قوم عاد اذ يتصدون لها بأجسادهم العملاقة ، ويأتى الطوفان فيسحق قوم نوح الكافرين الا من عصم ربي ، وتنزل الصواعق بالكفار وينشق البحر ليبتلع جيش فرعون وتتسلل حشرة الى رأس النمرود فيقضى على نفسه من هول عذاباته ، وينجو

ابراهيم من النار اذ يوضع فيهـا فاذا هى برد وسلام ، ويحيي عيسى الموتى، ويشق موسى البحر بعصاه ، وتطيـع الجن والحيـوانات والحشرات والرياح سليمان ، وتتآمر سالومى على قتل يوحنا المعمدان وقطع رأسه ، ويصلب اليهود عيسى ، وما صلب وما قتل وانما شبه لهم، وتأكل النيران أموال أيوب وتصعق أبنـاءه ويصـاب جسـده بالبثـور والعـذاب وتهلك ثمـود اذ تعقر ناقة صالح ، ويعيش لقمان حياة سبعة أنسر ، وتقطع النساء أصابعهن اذ يشاهدن يوسف •

وفى وسط هذا كله يبنى عاد أرم ذات العماد، وتختفى ، ويدمر جيشه قبل أن يصل اليهـا • ويصعد النمرود الى السماء ليحارب الله ، ويقدم ابراهيم ابنه ذبيحا بأمر الله ، ويعرف يوسف علم تفسير الأحلام ، ويفتن بنو اسرائيل بالعجل الذهب ، ويظهر الخضر ليثبت لمـوسى عجـز الانسان عن معرفة قدرة الله ، ويحشر سليمان الجن ، ويتحـكم فى الكون بخاتمه المسـحور

ويركب سليمان الريح فوق بســاطه ، ويبتلع الحوت ذا النون يونس ، ويدخل بلوقيا الى دنيا العجائب فى رحلة لرؤية محمـــد الذى لم يبعث بعد • وتنزل مائدة من السماء على عيسى ، ثم النبوءات بظهور الدجال فى آخر الزمان وقتله جال ، وخروج يأجوج ومأجوج ايذانا بنهــاية العالم (٦٤) • فما عندنا اذن حكايات عن بداية العالم ونهايته ، الأولى يخبر عنها طبقا للكتب المقدسة ، والثانية يخبر عنها بناء عــلى نبوءات فى الكتب المقدسة •

وحركة العالم من بدايتها الى نهايتهامحصورة فى صراع الأنبياء ضد الشيطان وضـــد الكفار الذى يتبعونه ويعصـــون الله ورســله وكتبــه وأولياءه الصالحين من جيل الى جيــل ومن عصر الى عصر • والاطار الذى يعيش فيه من آمنوا بهذه الكتب واتبعوا هــذه الديانات ، يتســع باتساع رقعة الايمان بالدين ، ويتقلص بتقلص

رقعة الايمان به ، ولكنه دائم التطلع الى أن يحوز العالم كله ، وأن يضمه من أقصاه الى أقصاه ــ ومن مشرق الشمس الى مغربها ــ تحت عباءته .
والابطال يتحركون فى حدود القدرات الممنوحة لهم ، وهى تتدرج من قدرات الانسان العادى ، الى قدرات الأنبياء أصحاب المعجزات والقادرين على التنبؤ وانزال غضب الله على العاصين والكفار ، الى قدرات أعلى من هذا لبعض الأنبياء الذين يستطيعون ممارسة السحر واتيان الخوارق وتسخير الجن والرياح الهوام والطيور ، وشق البحر واغراق العالم كله فى طوفان عام ، الى قدرات أكثر من هذا قوة ، وأكثر أيضا غموضا، حين تعقد الأسباب المجهولة لذى القرنين ، أو يعرف الخضر مالا يعرفه نبى الله موسى ، أو ينال أحدهم الخلود فلا يموت الا يوم القيامة نفسها .

وهذه العوالم مع ارتباطها الشديد بالخوارق

والقوى الغيبية وقدرات الله والعالم الخفى عن الانسان ، الا انها ترتبط أيضا ارتباطا شديدا بعالم الانسان المعاش أو الممارس بما فيــه من تنافس وخبث واحتيال، وحب وجنس وبغضاء ، وفداء ، وترفــع ، وهــزائم وانتصـــارات . ويرتبط هذان العالمان ارتباطا عضويا ، فنحن لا نحس بالنقلة بين أحداث العالم الأول واحداث العالم الثانى ، بل هما متشابكان ومتداخــلان تشابكا وتداخلا يبدوان طبيعيين فى سياق السرد القصصى بحيث تبدو صورة الحيــاة مزيجا من الخوارق والحقيقة ، وبحيث تبــدو الخــوارق حقيقة تشابه الواقع فى ألفها وتوقع حدوثها .

والقداسة التى تضفيها هــذه الحكايات على الأبطال تيسر هذا الوضع وتجعله مقبولا عنــد المتلقى وتهيىء ذهن ووجدان المتلقى لتقبل كل تصرفات هؤلاء الأبطال باقتنــاع سليم ، دون شك فى امكانية اتيانهم بالخوارق والمعجزات ، فى حتمية الانتصار النهائى للبطل على الكفار

وقوى الشرك التى يجب أن تدمر تدميرا كاملا وتهزم هزيمة ساحقة حتى لو خالف هذا منطق الحدث نفسه وطبيعة النتائج التى تقود اليها الأحداث ..

فوراء مخالفة منطق الأحداث وطبيعة النتائج التى تقود اليها قدرة تعز على الافهام وتعرف مالا يعرفه الانسان وتسوق الى هذه النتائج لحكمة يريدها الله ، ولن يدركها الانسان أو حتى نبى مرسل كموسى فى قصته مع الخضر أو كفرعون فى قصته مع يوسف مرة ومع موسى مرة أخرى. فالانسان ينبغى أن يؤمن ويسعى لنصرة دينه ، لكن ينبغى أن يؤمن أيضا أن ما يصيبه من أذى انما هو قدر تم بحكمة الله وأمره لحكمة لا يعرفها الانسان .

وأيا كان ما يراه من أمور تحيره فهى ستنتهى بنفاذ حكم الله الأزلى بانتصار الخير واندحار الشر .

وهذه الصورة المسطل الدينى كانت صاحبة

التأثير الأعظم على صورة البطل فى القصة العربية بعد ذلك ، وخصوصا على صورة البطل فى السيرالشعبية ، وحكايات الأولياء والصوفية، وأبطال الغزوات والفتوحات الاسلامية اذ تأثرت صورة البطل فى الرواية الاسلامية بهذا المعطى الدينى تأثرا واضحا ، كما تأثرت الصياغات الاسلامية لكل أنواع الروايات القديمة بهذه الصورة ٠

ويدخل هذا المعطى فى اعادة تكوين البطل عند تقديمه على يد القصاص الاسلامى ، اذ ان هذه الرؤية الدينية للبطل تتفق الى أقصى حد مع الرؤية الاسلاميةلعلاقة الانسان بالله ولحقيقة صراعه فوق الأرض ٠ فالله دائما مع المؤمن ينصره ، وارادة السماء ستحق الحق ، اذ لا عداء بين السماء والانسان انما العداء بين السماء والانسان من جهة ، وبين الشيطان والكفار من جهة أخرى ٠

وكان هذا السبب الحقيقى فى وقوف البطل العربى عند مرحلة الفتوة ، ثم المرحلة الملحمية من دون التقدم الى مرحلة الدراما كما رأينا فى أدب اليونان مثلا •

فالصراع بين الالهة والبشر الذى سببالنهاية الفاجعـة فى تحطم البطل أمام قوى الالهـة فى التراجيديا اليونانية حلته هـذه المعـادلة التى تحققت فى البطل الاسـلامى ، عنـدما سـمح الاسلام للبطل الدينى أن يتحقق بمفهومهالغيبى الذى يعتمد عـلى القـوى الالهية فى كسر الشر وهزيمته • فلم يعد هناك مكان لفاجعة نهـاية البطل أمام ضغوط القـوى القـاهرة ، بل غدت هذه القوى القاهرة مساعدة للبطل فى انتصاره فى النهاية على قوى الشر المعاكسـة له والمتآمرة ضده •

وأصبح انتصار البطل مسألة دينية ومسـألة قومية أيضا ، فقد امتزج الدين بمعنى القومية

بعد أن وحد الاسلام العــرب وأنهى حــروبهم القبائلية القديمة ليخرج بهم الى العــالم كقــوم وكدين أيضا أو كقــوم يبشرون بدين جــديد عــربى اللســان والانتمــاء ، عالمى العقيــدة والرسالة (٦٥) ٠

والبطل هنا صورة لقومية الرسالة ، وصورة لعالمية الدين أيضا ٠ وهو حين ينتهى النهــاية الحتمية بالموت ، يترك وراءه امتدادات طبيعية تستمر فى حمل الرسالة وأداء الأمانة ومواصلة ما بدأ فى حياته من معانى الصراع ضــد الشر والكفر ، وضد أعداء الدين وأعداء الوطن على السواء ٠

البطل الجــاهلى فى قصص الأيام مرحلة من مراحــل وجود البطل العربى بمعناه الــروائى والفنى ، ثم تأتى القصص الدينية لتمثل مرحلة التحول الاسلامية ٠ فهــذه القصص تثبت قيم الفتوة والفروسية العربية ليضيف اليها الاسلام

بعد هذا قيم الدين والايمان العام من ناحية ، وقيم الاسلام الخاصــة فى الاخــوة الاســلامية والجهاد ضد الطواغيت والتحرر من العبــودية لغير الله وتحريم التبعية فيما يغضب الله الذى هو جماع الفضيلة والخير ومعانى عزة الانسان وكرامته وحريته على الأرض وحقه فى المعرفة والعلم والتقدم الدائم المستمر من ناحية أخرى .

وعند القصص الدينى خلاف كبير فقد أحس الكثيرون من العلماء المسلمين ان هذه القصص تغالى فى مواقع منها ، بحيث تفوق فى مغالاتها كل ما يقبله منطق أو يرضاه عقل . وقد يقبل عقل المؤمن كل ما يفوق تصوره ان ارتبط بنص دينى صريح ولكن حين ينقل الرواة له الحكايات وقصصا يحكيها أبناء ديانات أخرى عن أنبيائهم أبطالهم ومعاركهم ، يصبح من حق الشك أن يدخل فى قلوبهم وعقولهم فى صحة هــذا الذى ينقل اليهم باعتباره من الحقائق الدينية التى

ينبغى التسليم بهـا وبصحتها حتى وان جافت العقل وخالفت المنطق ·

من هنا وثبت تهمة الاسرائيليات لتلحق بكل خبر يحس رجال الدين فيه بما لا يمكن قبوله ، حتى مع كل احتمالات الورع والتقوى والايمان بالمعجـزات التى تأتى عن الأنبيـاء والأبطـال الدينيين · ولعل ما كان يزيد شك هؤلاء العلماء اضطرارهم الى الاعتماد عـلى أبنـاء الديانات الأخرى الذين دخلوا الاسلام متأخرين، أو الذين ظلوا على دياناتهم القديمة · وحتى من دخـل الاسلام منهم ظل ولاؤه الكامل للدين الجديد ، يحوطه الشك ويدخل فيه الاتهام والظن ·

ولـكن هـذا الاتهـام والظن لم يمنعا أبدا الاستمرار فى اللجوء اليهم لتفسير ما غمض أو تعسر تفسيره من اشـارات القرآن الـكريم الى أحداثه وحكاياته · وفى نهاية الأرب قصـة استعانة معاوية بكعب الأحبار لتفسير حـديث القرآن الكريم عن أرم ذات العماد (٦٦) ·

والذى يهمنا من هــذه القصة الطويلة ففرة جاءت فى بداياتهــا حين يســأل معاوية رجال حاشيته عمن يدله على أمر المدينة ، أى أرم ذات العماد ، واليمنى الذى دخلها فى عصره ووصف ما بها ، فيدلونه على كعب الأحبار ويقولون له : « لأن مثل هذه المدينة على هذه الصفة لا يستطيع هذا الرجل دخولهــا ، الا أن يكــون ســبق فى الكتــاب دخــوله اياها فيعرف ذلك » • ويهمنا أيضا فقرة جاءت قرب نهاية القصــة حين يخبر كعب الأحبــار معــاوية بكل ما أراد ، فيقــول معاوية : « يا أبا اسحق ، لقد فضلك الله عــلى غيرك من العلماء ولقد أعطيت من علم الأولين والآخــرين ما لم يعطــه أحد • فقال : والذى نفس كعب بيــده ، ما خلــق الله تعــالى فى الأرض شيئا الا وقد فسره فى التــوراة لعبــده موسى تفســيرا وان هــذا القرآن أشــد وعيدا ، وكفى بالله شهيدا ، والله الهادى للصواب » • •
فعلم الأولين هنا هو الحكايات القديمة ، وعلم

الآخرين هو هذه الاضافات المعاصرة لعهد معاوية التى تستكمل روائيا حكاية قديمة ، أو يدخـل أحد معاصريه هذه المدينة المجهولة القديمة ارم ذات العماد • فاذا كل شيء مذكور فى التوراة فسره الله لعبده موسى تفسيرا •

وبالقطع فان التوراة لا تحوى شيئا حدث فى عهد معاوية، ولا تحكى عن رجل عادى يشاهد مدينـة أرم فى عهـده ، لكن حـكاية معـاوية لا تحوى استنكارا لهذا وان حوت الدهشة من امكان حدوثه • وان حوت ، بلا شك ، التسليم بمـا يرويه كعب ، انه عـرفه من التـوراة أو الكتاب القديم •

والاشارة الى القرآن هنا ، أى فى حـديث كعب الأحبار ، فرع من محـاولة تأكيـد معنى ضرورة تفسير ما جاء فى القرآن عن طريق من يعرفون أسرار التوراة ورموزها • ومن هنـا كان المدخل الى الاسرائيليات ، كهـذه العبـارة الصريحة التى تربط بين القـرآن والتـوراة ،

وكالعديد من الأشياء غير الواردة في نص ، والتي تجر هؤلاء الحكاؤون فاضافوها الى تفسير ما جاء في القرآن من قصص ، كقول وهب بن منبه : « ليس في الجنة كلب أو حمار الا كلب أصحاب الكهف وحمار ارميا الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه » (٦٧) .

والتفسير وكتب الأخبار والتاريخ مليئة بمثل هذه الأقوال التي لا سند لها الا الاعتماد على ما عرفه رواتها من علم التوراة . وقد وقف ابن خلدون في مقدمته وقفة المستنكر الرافض لاستسلام المؤرخين والمفسرين لهذه الحكايات وادخالها في باب الأخبار الصحيحة عن الأمم القديمة ، فيقول عن هذه القصة بالذات : « وأبعد من ذلك وأعرق في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة الفجر في قوله تعالى: (ألم تر كيف فعل ربك بعاد أرم ذات العماد) (٦٨) .

وهو يشير في هذه العبارة الى قوله قبل ذلك

عن هذه الأخبار : « وهذه الأخبار كلهـا بعيدة عن الصحة ، عريقة فى الوهم والغلط ، وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة » ، ولابن خلدون معارضة ناقدة للعدد الذى ذكره المؤرخون لأبناء اسرائيل فى خروجهم من مصر يشكك فى صحة الخبر ، وينقله الى عالم الخيال والقصص ٠

وهذا الموقف من ابن خلدون يصور ما أدخله هـؤلاء الـرواة من قصـص الى كتب التـاريخ باعتبارها أخبارا حقيقية ، وهى فى حقيقتهـا حصيلة ما تبقى فى ذاكرتهم من حكايات قديمة ٠ واذا كنا قد قلنا من قبل ان القصص الجنـوبى يمثل موقفا عنصريا اذ هو يبرز تفوق الساميين الجنوبيين بالذات على باقى شعوب العالم ، وان قصص الفتوة يمثـل مرحلة الانتماء العـربى والتعرف على ملامح ومكونات الشخصية العربية، فاننا نستطيع أن نقول ان هذه القصص الدينية تمثل تعصبا دينيا ، أو محاولة لفرض مفـاهيم يهودية قديمة على الفكر الجديد ٠

ونستطيع أن نقول ان الصياغة الاسلامية أفرغتها من كثير من مضامينها ، وأنها وظفتها فى خدمة المعنى الدينى الاسلامى بما يتواءم مع ما ورد فى القرآن الكريم من قصص الأنبياء وبخاصة أنبياء بنى اسرائيل • وهى تمثل منطقة حساسة فى القصص العربى القديم لم تهتم بها الدراسات الأدبية بعد اهتماما كافيا •

د ـ الطرائف :

ونعنى بها تلك الحكايات المتوارثة والمتناقلة عن المعارف العربية القديمة وعن العادات العربية الممارسة ، وعن حكمة الانسان المكتسبة من تعامله مع الحياة والدنيا من حوله ، بسمائها وأرضها ، وبحرها وسهلها وجبالها ، وبحيوانها وطيرها ، وبالانسان فيها على مر الزمن •

والحكايات التى وردت الينا من التراث العربى عن المعارف العربية تختلط فيها بقايا

الأساطير ، ومتبقيات معارف الكهنـة مما كان يشكل جزءا من المعرفة من السـحر القـديم ، بمزيج من الملاحظات والمعارف المنقولة والمعلومات المتداولة والتى تعددت مصادرها لتكون عربية ، أو من معطيات الشعوب المجاورة التى احتك بها العرب وعرفوها عن طريق التجـارة والغـزو والاختلاط العرقى • وليس صحيحا ان الجزيرة العربية كانت جزيرة بشرية معزولة عن باقى البشر من حـولهم ، فهـذه مقولة خاطئـة من أساسها ، وقد تعرض كثيرون من علماء الأجناس والسلالات وعلمـاء الجغرافيـا البشرية لهـذه المقولة وحاولوا بحثها وأثبت الكثيرون فسادها •

وقد لخص برترام تـوماس مـوقف هـؤلاء العلماء فى قوله : « هـل العـرب من الناحيـة العرقية كلهم من أصل واحد ؟ هذه النظرية على أية حال لا يـؤيدها كل من العـالم (جليسر) والرحالة (بيرتون) •• ففى حين يعتقد الأول أن العرب ليسوا من أصـل حام •• فان الأخير

أشار الى أنه جمع من الأدلة القاطعة ما يثبت أن العرب ليسوا كلهم من أصل واحد وانما ينحدرون من ثلاثة أصول عرقية متباينة عن بعضها البعض » (٦٩) ٠

وينقل الأستاذ برترام توماس رأيا آخر للجنرال ميتلاند الذى كان مقيما سياسيا بريطانيا فى عدن ، يقول : « ينحدر عرب شبه الجزيرة العربية على ما يبدو من أصلين مختلفين ومتميزين ، فالنظرية السائدة عن قسمات العربى هى أنه الرجل الطويل اللحية الأملس الوجه كالصقر، غير ان عرب جنوب شبه الجزيرة أصغر قامة وأحسن تقاطيع وأكثر سمرة وغير ملتحين تقريبا ٠

وتجمع كافة المصادر على أن عرب الجنوب ينحدرون من أصل حبشى ٠ ومع ذلك فيبدو من الغرابة بمكان أن نقرر أن المصريين وعرب القارة الأفريقية هم العرب الأقحاح بين العرب

الساميين ، أما عرب الشمال فهم عرب مستعربة أى انهم عرب بالتجنس أو الاستيطان أكثر منهم عربا بالسلالة » (٧٠) ٠

وأيا كان الأمر فيما يذكره برترام توماس ومن ينقل عنهم من رحالة أو علماء فى السلالات والجغرافيا البشرية ، فنحن نعرف أن الهجرات الحبشية والافريقية عموما غزت جنوب الجزيرة منذ زمن قديم ٠ وتكونت للأحباش ممالك داخل الجزيرة العربية نفسها لعل أشهرها مملكة أبرهة قبل الاسلام بقليل (٧١) ٠٠ كما نعرف أن هذا الجنوب تعرض أيضا لهجرات فارسية من قديم جدا احتلت الجزء الجنوبى الشرقى من الجزيرة العربية وحكمته زمنا طويلا ، ثم شاركت فى تحرير الجنوب الغربى من الأحباش على عهد سيف بن ذى يزن الحميرى (٧٢) ٠

أما الشمال فنعرف ان صلاته بالمصريين تبدأ باستيطان هاجر زوجة ابراهيم للشمال وبناء

الكعبة • كما أن صلاته بالروم عميقة الجذور منذ محاولات الاسكندر فتح الجزيرة وكذلك البطالسة ، ثم وجود مملكة الغساسنة فى الشام واستقرار الروم فيها •

فالحديث عن الجزيرة العربية كجزيرة بشرية منعزلة حديث مرفوض ولو أنه سار كالمسلمة رغم أننا نلمح فى الحكايات العربية ذكرا دائما لأسماء لا علاقة لها بأبطال الجزيرة ، وبأحداث لم تتم أصلا فى الجزيرة ، ثم هى مليئة بالطرائف التى تشى بعادات وعقائد الشعوب المحيطة بالجزيرة من الهند الى فارس الى الروم الى مصر الى أفريقيا عموما والحبشة على وجه الخصوص • والذى يتابع أخبار المسامرات العربية والطرائف المتداولة فى هذه الأسمار ، يحس بمخزون ثقافى ضخم يمثل حصيلة العالم القديم من الحكايات وبقايا المعتقدات والعبادات •

وقد أدهشت هذه الظاهرة المسعودى فقال فى مروج الذهب : « وقد ذكر كثير من الناس ممن لهم معرفة بأخبارهم ان هذه الاخبار موضوعة . من خرافات مصنوعة ، نظمها من تقرب للملوك برواياتها ، وصال على أهل عصره بحفظها والمذاكرة لها ، وأن سبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا والمترجمة من الفارسية والهندية والرومية . وسبيل تأليفها مثل كتاب أقسان ، وتفسير ذلك من الفارسية ويقال له أقشابة ، والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة ، وهو خبر الملك والوزير وابنته ودايتها شيرزاد ورسازاد ، ومثل كتاب وزره وشماس وما فيه من أخبار ملوك الهند والوزراء ومثل كتاب السندباد وغيرها من الكتب فى هذا المعنى » (٧٣) .

فالعرب اذن لم يتداولوا فى مسامراتهم حكايات أبناء الجزيرة وحدهم ، وانما كانوا يتداولون أيضا حكايات معروفة لهم ومنقولة اليهم من أقاصيص الشعوب الأخرى . وفى هذا

يقول الهمدانى : « لم يصل الى أحد خبر من أخبار العرب والعجم الا من العرب ، ذلك لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة وأخبار أهل الكتاب » وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس ٠

وكذلك من سكن الحيرة وجاور الأعاجم علم أخبارهم وأخبار حمير وسيرها فى البلاد ٠ وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم وبنى اسرائيل واليونان ٠ ومن وقع بالبحرين وعمان فعنه أتت أخبار السند وفارس ٠ ومن سكن اليمن علم أخبار الأمم جميعا لأنه كان فى ظل الملوك السيارة » (٧٤) ٠

ومن هنا فان حكايات الطرائف العربية مثلت جماع الفن القصصى الشعبى المتداول فى العالم القديم كله ، ولم يقتصر الأمر على الموروث العربى فى الجزيرة العربية وحدها ٠

ومهنة القص كانت معروفة ومتداولة فإبن

هشام يروى خبر النضر بن الحارث الذى كان من شياطين قريش « وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملـــوك الفـــرس وأحاديث رســـتم واسفنديار ، فكان اذا جلس رسول الله صـلى الله عليه وسلم مجلسا فذكر بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم الأمم من نقمة الله ، خلفـه فى مجلسه اذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه ، فهلم الى، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار » (٧٥) ٠

ولم يكن العرب يجدون فى حديث النضر بن الحارث أو غيره من القصاص شذوذا عن القاعدة المتبعة فى أسمارهم ، سواء فى مجالسهم الخاصة أم فى جلساتهم بعـد العـودة من المـراعى فى الجلسات العامة كتلك الجلسة التى كانت تعقد فى دار الندوة التى أقامها قصى بن كلاب قبـل الاسلام ، والتى يرجع اليها د ٠ عبد الحميـد يونس أصل المقامة فيقول عنها :

« كانت تمثيلا مباشرا متواصلا يقدمه ممثل فرد ومن هنا امتزجت بالسرد القصصي، وتطورت في العصور الاسلامية الى مواقف يؤديها الزهاد أمام الخلفاء والسلاطين والوزراء » (٧٦) ٠

ويؤيد د ٠ شوقي ضيف ما يذهب اليه د ٠ عبد الحميد يونس في بدايات المقامة ووظيفة دار الندوة في الجاهلية (٧٧) ٠ لعل هذه الاسمار المختلفة اذن كانت الزاد القصصي للمتسامرين في العصر الجاهلي ، وهي بهذا تحطم الحواجز التي افترضها الدارسون عازلة للجزيرة وأصلها عن مصارف الدنيا حولهم ، وجعلتهم يسحبون التسمية من الجهل بالدين الى الجهل بالحياة نفسها، وهو خطأ أوقعهم وأوقعنا حتى الآن في متاهة البحث عن العمق الحضاري لأبناء الجزيرة قبل الاسلام ٠ وعن عمق النتاج الحضاري لهم المتمثل في فنونهم عموما ، وفي فنهم القولي خصوصا ، وفي فن القصة بالأخص٠

وقد أولع العرب ولوعا كبيرا بالأمثال . والمثل قول سائر يمثل تجربة مستفادة وحكمة غالية . والمثل قد يكون بيتا من الشعر أو شطرا من بيت ، أو كلما مسجوعا ، أو كلما مرسلا مختصرا ووافيا . وسنلاحظ اهتمام العرب بجمع هذه الأمثال وتصنيفها وتبويبها ثم حفظها وتداولها .

والقرآن حافل بالأمثال ، وضرب الأمثال . ويقول تعالى : (.. كذلك يضرب الله الأمثال) (٧٨) . كما يقول : (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء) (٧٩) .

وفى السورة نفسها يقول تعالى : (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) (٨٠) .

ويقول أحمد بن محمد الميدانى صاحب مجمع الأمثال وهو أشهر مصنف عربى جمع أمثال العرب : « وأمثال هذه الأمثال فى التنزيل كثير

وهذا الذى ذكرت عن طويلها قصير ، أما الكلام النبوى فى هذا الفن فقد صنف العسكرى فيه كتابا برأسه ولم يأل جهدا فى تمهيد قواعده وأساسه » (٨١) •

والأمثال المشهورة عن النبى (ص) استلفتت بالفعل انتباه كثير من المؤلفين العرب •

وشهاب الدين النويرى يفرد القسم الثانى من الفصل الثانى للأمثال المشهورة عن النبى (ص) والصحابة ، واشتهرت كتب كثيرة كمراجع لهذه الأمثال ومن أهمها التى يرجع اليها أحمد بن محمد الميدانى فى كتابه الجامع هذا فيقول :

« •• فطالعت من كتب الأئمة الاعلام ما امتد فى تقصيد الامام ، مثل كتاب أبى عبيدة وأبى عبيد والأصمعى وأبى زيد وأبى عمرو وأبى فيد • ونظرت فيما جمعه المفضل بن محمد والمفضل بن سلمة حتى لقد تصفحت أكثر من خمسين كتابا •• » ثم يقول :

« ونقلت ما في كتـاب حمزة بن الحسن الى هـذا الكتـاب ، الا ما ذكره من خرزات الرقى وخرافات الاعراب، والأمثال المزدوجة لاندساجها في تضاعيف الأبواب » ويقول شارحا منهجه في التأليف : « وجعلت الكتاب عـلى نظام حـروف المعجم في أوائلها ليسـهل طـريق الطلب عـلى متناولها، وذكرت في كل مثل من اللغة والاعراب ما يفتـح الغلق ، ومن القصص والأسـباب ما يوضـح الغرض ويسـيغ الشرق مما جمعه عبيد بن شرية وعطاء بن مصـعب والشرقى بن القطامى وغيرهم » (٨٢) .

ويورد أقوال الكتاب في تعريف المثل فيقول:

« قال المبرد : المثل مأخوذ من المثال ، وهـذا قول سائر يشبه به حال الثانى بالأول » ويقول أيضا : « قال ابراهيم النظام : يجتمع فى المثل أربعة لا تجتمع فى غيره من الـكلام ، ايجـاز اللفظ ، واصـابة المعنى ، وحسن التشـبيه ، وجودة الكتابة ، فهو نهاية البلاغة » . فالأمثال

عند أصحاب البلاغة قمة فى بلــوغ الغــاية ، ولكنها آخر الأمر مصدر مهم للقصص العربى المتداول ٠

فالمثــل انما يضرب اسـتخراجا للعبرة من حادثة أما قصة حقيقية وقعت بالفعــل ٠ واما حكاية مؤلفة يلخصها المثل أو مجمــوعة الأمثال الواردة فيها ٠

وسواء كان الأمر فى المثل هذا أم ذاك فهــو لا يمكن فهمه الا بايراد الحكاية نفسها ٠ وهنا يدخل خيال الراوى ، كما يدخل خيال الجامع ، ويدخل بعد هذا كله قدرة الصائغ على الصياغة والعطاء الفنى ٠ وقد يكون المثل سائرا وقد نسى سببه فلا يجــد مورده ما يمنعه من أن يحــكى حوله القصص كما يقول أحمد بن محمد الميدانى (ما يوضح الغرض ويسيغ الشرق) ٠ والواقع أننا لا نجد قصة حكيت لنا الا وقد ترددت فى بعض عباراتها كلمة (وذهبت مثلا) ، وبخاصة

تلك القصص التى اهتمت بالبلاغة وأساليب الفصاحة اهتماما كبيرا ·

والمثل فى حد ذاته صالح لأن يكون موضوعا للقص ، اذ هو اختصار بلاغى لحكاية قصصية كاملة ، والأمر فيه أمر الكتابة والأحاجى والألغاز ، فكلها مهارات لغوية تلخص حدثا أو تشير اليه ، وفهمها لابد من العودة فيه الى الحكاية نفسها وسردها ، فان عزت الحكاية ، خلق الابداع الفنى حكاية حولها ·

وكما شغف العرب بالأمثال شغفوا أيضا بأخبار الكهنة وأسجاعهم ، فهذه الأخبار انما تحكى ما تبقى فى الذاكرة العربية من حكايات قديمة مرتبطة بالجان ومعرفتها بالغيب وأخبارها بأمر الغيب للكهنة الذين كانوا يتنبأون بوقوع الأحداث قبل حدوثها بزمن طويل · ولهم فى المأثور المدون مجموعة ضخمة من أسجاع الكهان، تروى فى قصص الأمم البائدة وانهيار السد ، وحفر زمزم ، وأيام العرب وأحداثها · والميزة

الأولى للسجع أنه كالأمثال سهل الحفظ ، سهل الترداد ، وهو بهذا يذكر بأجزاء الرواية الطويلة التى يحفظها الراوى ، فكأنها محطات للتذكرة واكمال ما قد يغيب عن باله من أحداث لها أهميتها فى تتابع السرد الروائى • وارتبط سجع الكهان بتفسير الأحلام •

والحلم قصة مرئية يحولها راويها الى كلمات، ثم يحيلها المفسر الى أحداث ستحدث نتيجة تفسيره لرموز الحلم • فكأننا نعيش فى عالم من الصور المجسدة التى يقوم المفسر بتحويلها الى صور محكية ومسموعة • فنحن فى عالم من صميم البناء القصصى دون شبهة أو جدل •

وقد انتشرت حكاية الحلم هذه فى معظم الأعمال القصصية العربية ، وسنلمحها فى الحكايات التى يوردها ابن اسحق فى السيرة النبوية ، ووهب بن منبه فى التيجان ، كما سنجدها بعد هذا تمثل عصبا رئيسيا فى السير الشعبية خصوصا فى سيرة سيف بن ذى يزن

وسـيرة الظاهر بيبرس • وفى البـدء كانت الأحلام نذيرا بالقدر الصارم الذى ينذر بالدمار والخراب (٨٣) •

ثم تحولت هى والنبـوءات معا الى مبشرات بالرسـالة النبـوية حتى ليقـول شهاب الدين النويرى ممهدا لما أورده منها : « وأخبار الكهانة كثيرة نذكر منها ان شاء تعالى فى السيرة النبوية جملة تقف عليها فى المبشرات برسول الله صلى الله عليه وسلم » (٨٤) •

ثم تحول الأمر الى أن أصبح الحلم والنبوءة وسيلة لتفسير وقوف القدر الى جـوار البطل ، وحتمية انتصاره على أعدائه من الكفار وأعداء الدين • ومن هنا كان الحلم كما كانت النبوءة تسبق الأحداث غالبا ، ثم تأتى الأحداث لتكون مصداقا لها ، وتفسيرا قصصيا وبدائيا لرموزها ومعانيها ••

وقد اهتم القـرآن بالأحـلام فى توظيفهـا

العربى المألوف ، ولعل قمة هـذا الاهتمام بدأ فى سورة يوسف حتى يصل الأمر الى ان تصبح هى العلم الذى اختص الله به يوسـف فشق به طريقـه فى بلاط فرعون ، وفى التحـكم فى أقدار بلاده • ثم فى جلبه لأبيه واخوته الى ارض مصر فى أول دخول لبنى اسرائيل الى أرض مصر كما تنبأ له حلمه القديم فى أول القصة(٨٥) • وقد شـغلت أخبـار الكهان وأسجاعهم ، وأخبار الأحلام وأخبار النبوءات العرب شغلا واضحا•

وارتبطت عندهم بأخبار الجن وأخبار السحر والسحرة على حد سواء •

ويفرد ابن النديم فى الفهرست الفن الثانى من المقالة الثامنة لأخبار هـؤلاء ويقـول فى أوله : (يحتوى على أخبار المعزمين والمشعوذين والسـحرة وأصـحاب النيرنجيـات والحيـل والطلسمات » (٨٦) •

وسنحس مما أورده ابن النديم أننا فى عالم

وان قام على شبهة معـــرفة الا أنه أســـاسا عالم روائى ، فهو يتحدث عن «أسماء العفاريت الذين دخلوا على سليمان بن داود » ، ثم يقف عنـــد أسماء سبعة منهم ، ثم يتحدث عن الكتب المؤلفة فى السحر والشعوذة • وهذا الاهتمام قائم على الايمان بالـكثير من الغيبيـات والقـدريات ، فالاهتمام بالحلـم وبالكهـان والنبوءات قرين الاهتمام بالجن والسحرة •

وهو أيضا قرين ببعض المعتقدات العربيـة التى تكثر أخبـارها ، وتكثر الحـكايات عنهـا كالـزجر والفأل والطيرة والفراسـة والذكاء ، وما يسمى بأوابد العرب • والمسألة فى مجملها تفاؤل وتشاؤم يأخذ أشكالا مختلفة •

كمـا أن الأوابد هى مجمـوعة من البقـايا الوثنية أصبحت تسرى فى الناس مسرى العادات الاجتماعية المتبعة ، وتقوم كلها على مجموعة من العقائد المستندة الى تحكم القـوى الغيبية غـير

المعروفة فى مقدرات الناس وكيفية رد شر هذه القوى فى شكل أو فى آخر (٨٧) .

وعلى قدر اهتمام المؤلفين العرب بهذه الاوابد وبالزجر والطير والفأل والفراسة ، على قدر امتلاء كتبهم بذكر الحكايات الدالة عليها والذاكرة للمشهور منها ومن عرفوا بها من قبائل العرب ، وعلى بن الحسين المسعودى فى مروج الذهب ومعادن الجوهر يقف طويلا عند هذه الحكايات ويورد العديد منها (٨٨) .

وكذلك يفعل شهاب الدين النويرى وغيره . ويذكر « ابن النديم » فى الفهرست مجموعة من هذه المؤلفات مع أسماء مؤلفيها ، والفن الثالث من المقالة الثامنة من كتابه تحت عنوان : الكتب المؤلفة فى الفأل والزجر والحزر وما أشبه ذلك : الفرس والهند والروم والعرب (٨٩) .

وقد أمدت هذه الكتب المؤلفين القصصيين بمادة ضخمة اندست وسط ثنايا رواياتهم

وقصصهم ، سواء منها ما روى عن الفترة العربية قبل الاسلام ، أم ما كان فى الفترة الاسلامية ، وما كان منها بعد انتشار الاسلام وظهوره فى المناطق الأخرى المتعددة ٠

وسنحس من هذه الحكايات أنها مزيج متداول بين الشعوب فى المنطقة ، وأنها أقرب الى الموروث الشعبى الانسانى العام منها الى أن تكون خاصية عربية بذاتها ٠ وهذا الموروث العام حقق للقصص العربى الشعبى المتداول حول هذه المواضع نوعا من الشيوع فى البلاد العربية كلها ، ونوعا من القربى من مثيلاتها العالمية الواردة فى كل آداب العالم القصصية ٠

الا أنها كانت أيضا مددا زاخرا بشخصيات السحرة والكهنة والمفسرين وقصاصى الأثر وأصحاب الفأل والطيرة والمهرة من أصحاب الفراسة والملغزين وعارفى الغيب ، وقارئى الدلالات الغامضة عن الأحداث المستقبلية ٠

والى جوار هذه الذخيرة من القصص تبرز قصص النوادر حول الجوارى وحكايات الحب والشذاذ من اللصوص والبطالين والمغفلين (٩٠) ٠ ويذكر « ابن النديم » ثبتا بأسماء الكتب المؤلفة فى أحاديث البطالين والمغفلين وتعبير الرؤيا والحكمة والتعاويذ والرقى ، والمشعوذين والسحرة وأشباههم ٠ وبرزت فى هذه الأسماء والنوادر حكاية الحيوان وحكاية المكان ٠ وهما معا من بقايا الأساطير القديمة المرتبطة بعبادة الحيوان ، والمرتبطة بتعليل أسماء الأماكن ٠

وسنجد حكاية الحيوان غالبة على القصص المرتبطة بالزجر والفأل والطيرة ٠ وعلى الرغم من حتمية وجود هذه الحكايات فى المأثور الشعبى العربى القديم بحكم ارتباط حياة العربى بالحيوان كراع يعيش على رعى الأغنام ، والأبقار ، أو كمسافر يتجول فوق الجمل ، وكفارس يعيش فوق فرسه ، الا أن المأثور

العالمى القديم دخل الى حكايات الحيوان بكثرة وغزارة .

وقد أفردت الخيل بمؤلفات بذاتهـا تحـكى حكاية الانسان مع الفرس منذ الأسطورة ، ثم تستمر الى تسميات العرب للخيول وأسبابها، وعن الطب البيطرى الخـاص بها ، وعن علوفاتهـا وأنواعهـا ، ثم عن نسب جيـادها وأصـائلها ويرتبط كل هذا بسـيل لا ينتهى من القصص والحكايات المنوعة ، يمتزج فيها عنصر الأسطورة منذ تزاوج خيـل سليمان مع خيـل البحر ، الى حكايات التاريخ فى الـوقوف عنـد الشهير من الخيول وسلالى هذه الخيول وحيلهم فى سـلها أو سرقتها ، أو الحصول منها على نسل نبيـل ، الى ربط الخيل بمشاهير الفرسان فلكل فارس شهير فرس له اسمه المشهور .

والكثير من القصص العربية تدور حول هذه الخيول ، وتقوم عقدتها الأولى على هذه العلاقة

الوطيدة بين الفارس والفرس (٩١) • والأمر في الابل لا يقل أهمية عن هذا ، فالابل هي سفن الصحراء ، وهي أمان العربي في رحلته الدائمة، وهي لباسه وطعامه وأدواته أيضا •

وقد ألفت الكتب في أصائل النياق وعاداتها وطباعها وتطبيبها ، والقصص الغريبة المروية عنها • والناقة كانت محور الكثير من الأحداث الهامة في الحياة القصصية العربية ابتداء من ناقة صالح الى حكاية الجساسة الى النوق العصافير في حكاية عنترة •

وموسوعة محمد بن موسى الدميري عن الحيوان ، وكذلك موسوعة الجاحظ تشهدان على أهمية الحيوان في القصص العربي ، وامتزاجه ببقايا العبادات القديمة والأساطير المتوارثة (٩٢) •

كما حفلت هذه الحكايات بالكثير من استيحاء للحيوان واستعمال له في تحويل مجرى الأعمال القصصية أو التأثير في الأحداث تأثيرا مباشرا

أو غير مباشر . وقد حفل الشعر العربى بوصف الحيوان والتغنى به ، سواء منه ما كان مستأنسا أم ما كان وحشيا . كما حفل القصص القرآنى بالحديث عن الحيوان والطير بل والهوام أيضا (٩٣) .

ومع كل هذا فقد نقل العرب حكايات الحيوان عن الشعوب الأخرى وتناقلوها ، قال محمد بن اسحق : « أول من صنف الخرافات ، وجعل لها كتبا وأودعها الخزائن ، وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان الفرس الأول » (٩٤) .

ويقول : « ونقلته العرب الى اللغة العربية وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه ، وصنعوا فى معناه ما يشبهه » . وكذلك الأمر بالنسبة للهند فابن النديم يذكر كتاب ابن المقفع كليلة ودمنة ومحاولات نظمه شعرا .

وسنلاحظ ان معظم الحكايات العربية عن الحيوان أخذت هذا الطابع الهندى فى استخراج الحكمة من أحداث تجرى بين الحيوانات ، أو

بينها وبين النــاس • وهى آخــر الأمر رموز يختفى وراءها الكاتب ، ويخفى هدفه الاجتماعى أو السياسى وراء هذه الأقنعة الحيوانية • لكنها امدت القصاص بوسيلة منجية للسرد القصصى اذا ما تعــرض لأمر يعرض صــاحب القصــة للمؤاخذة بشكل أو بآخر •

والحيــوان اذن كان مــادة للمعــرفة ومادة للأســطورة ومادة للحــكى الخرافى ، ثم مادة للحكمة ، ومادة للقصاص وخيالهم الواسع الذى يربط بين عالم الانسان وعالم الحيوان بهــذا الرباط الوشيج الذى يربط بينهما فى واقــع الحياة نفسها •

أما بالنسبة الى المــكان وحــكايته ، فيــكاد لا يوجــد مكان فى بلاد العــرب لا تروى عنــه الحكايات التى تفسر سر وجوده وسر التســمية التى أطلقت عليــه بدءا بالكعبــة المشرفة وبئر زمزم ومدينة يثرب ، ومكة أو بكة ، ووصــولا الى أســماء الأقطار كمصر والحجــاز والشــام

واليمن ، ووقوفا عند كل ميل وكل بئر ، وكل ملمح جغرافى من ملامح الجزيرة عموما ٠

وسنحس بالثراء القصصى الحقيقى اذا ما حاولنا تتبع أسماء الأماكن وما روى حولها من قصص تتراوح بين القداسة والواقع والمعاش ٠ وتضرب فى أعماق التاريخ وتصل الى قرب الاسلام ٠ كما تضرب الى أعماق الوثنية والديانات القديمة ، وتصل الى الحكايات المبشرة بالاسلام والممهدة لأحداث السيرة النبوية ووقائعها ٠

فمنذ البدء تروى الحكايات المرتبطة بالنجوم ، وهى حكايات ثرية بالخيال غنية بالعاطفة كحكاية الزهرة الملكة التى تحولت الى نجمة والملكين هاروت وماروت اللذين تحولا الى صنمين (٩٥) ٠ وحكاية أساف ونائلة (٩٦) ٠

وحكاية هبل واللات والعزى ، وغيرها من الأصنام والأوثان ٠ ومنذ البدء هناك بيوت

الأوثان كالكعبة فى مكة والقليس فى اليمن ، وبيوت أخرى فى الطائف وغيرها من مدن الشمال والجنوب على السواء ٠

وحول هذه البيوت حكايات تفسر ، وحكايات تقدس ، وحكايات تعمق عادة هذه الأوثان ، وتعمق معنى القدسية لهذه الأماكن ٠ وهناك أيضا بيوت النيران للمجوس فى أماكن وجود الفرس فى الجنوب والشرق على السواء ، وأماكن البيوت المعظمة والهياكل المشرفة للصابئة يذكرها « المسعودى » بالتفصيل فى مروج الذهب ، وحول هذه البيوت حكايات لا تنتهى وقصص بعضها غامض وبعضها ملىء بالرمز الفلسفى أو الدينى ٠

وهناك أيضا معابد اليهود وكنائس النصارى وأديرتهم ، وقد دخلت فى صلب الكثير من الأعمال القصصية كأماكن لوقوع الحوادث والمعارك والمؤامرات وخصوصا فى الحكايات

التى تدور حول معارك العرب والروم (٩٧) ، والمعارك التى تدور بين العرب والفـرس (٩٨) أو المعارك التى تدور بين العرب والأحباش (٩٩) .

وقد لعبت هذه البيوت الدينية دورا مهما فى ابقاء ملامح من الأساطير العقائدية القـديمة مرتبطة بما ظل يروى عنها من حكايات .

كذلك لعبت دورا مهما فى حـكايات الجن وحكايات السحر على السواء . وهـذه المعـابد وما بها من تماثيل ، وكذلك القبـور القـديمة وما فيها من أجساد محنطة وتوابيت كانت مجالا للخيـال القصصى . وكانت مسرحا لبطـولات الجسارة والمغامرة من أبطال يغامرون للحصول على ما بها من كنوز أو التعرف على ما فيهـا من أسرار (١٠٠) .

وكانت المسرح الذى يلتقى فيه الأبطال مـع الذخائر المعدة لهم لتعينهم على القيام بأدوارهم البطولية فى عالمى الانس والجن على السواء .

وقد لعبت القصور والقلاع الأثرية دورا مهما في اثارة الخيـــال حول أصـــحابها القـــدماء من الملوك الحميريين أو القواد العسكريين وحروبهم وانتصاراتهم وقصص الحب والخيانة التى كانت مسرحا لها (١٠١) ٠

وقد ترك الخيـــال لنفســـه العنـــان فتخيـــل الوجدان العربى وجود وادى الجن أو وادى عبقر حيث مجمع الجان الشعراء الذين يوحون للشعراء المشهورين بأشعارهم ٠ كما خلق هذا الخيـــال مدينة الأحلام، أحجارها من معدن كريم ومرصعة بالزبرجد والياقوت والمرجان ،ومطلية بالذهب، والأنهار تجرى من تحتها والأشـــجار محملة بكل ثمار العالم ، مما يشبه قصور الجنة كما يتخيلها الوجدان العربى فى « أرم ذات العمـــاد » التى بناها عاد واختفت عن الأنظار بعد موته ، والتى أحكمت القصة أمره أن يكون على قيد أنملة منها فلا يدخلها أبدا ٠

ثم يعود الخيال ليبرزها مرة فى عهد معاويه ثم تختفى من جديد • وحكاية ارم ذات العماد تذكرها كل كتب القصص العربية على مختلف تسمياتها (١٠٢) •

كما تجعل القصة العربية قبر حاتم الطائى أشهر من عرف بالكرم من العرب يقرى ضيوفه ويستضيفهم رغم أنه مجرد قبر ، لكن الخيال يسر له أن يكون على مثال الراقد فيه كرما وحسن ضيافة (١٠٣) •

ويلعب المكان دورا محوريا فى تحديد مكان البطل من قومه أو من القضية العامة للقوم • فحفر بئر زمزم والقصة التى تدور حوله على عمقها وجاذبيتها انما سبقت لتحدد مكان عبد المطلب فى قريش (١٠٤) • وبناء يثرب على يد وزير ذى يزن الحميرى المسلم سرا ، تحدد مكان ذى يزن ومكان ابنه فى التمهيد للاسلام •

وكذلك تلعب حكاية الحلم الذى يأمر ذى يزن بكسوة الكعبة ثلاث مرات حتى يستجيب استجابة

كاملة دورا مهما فى نسبة سيف بن ذى يزن الى عالم الاسلام بمعناه العام وحربه للكفار وعبدة النجوم (١٠٥) وحكايات المكان تبدو امتدادا للأسطورة التعليلية ، وامتدادا للأسطورة التاريخية ، وتبدو محورا رئيسيا يعكس وجوده القصصى بعد ذلك فى الأعمال الروائية العربية فى عصور الابداع والتأليف ٠

ونحن لا ننسى من موضوعات النوادر ما كان يدور حول المغازى والأنساب ، وحول المثالب والمغامز فيها وحول الشعراء والخطباء ، وحول المغنين والمغنيات ، وحول الجوارى والعبيد ، وكلها أمدت القصة العربية بالوافر من المواقف الخصبة والحكايات الطريفة ٠

الا أن هذه النوادر نفسها وكذلك أصحابها كانت وكانوا جميعا موضوعا لحكايات طريفة وثرية اهتم بها الاخباريون الرواة وأعطوا

أنفسهم الحق فى أن يديروا حولها وحولهم القصص والحكايات ·

وفى الفهرست فصل كامل هو الفن الثالث من المقالة الثالثة من الكتاب يحتوى على أخبار القدماء والجلساء والأدباء والمغنين والصفادمة والصفاعنة والمضحكين وأسماء كتبهم (١٠٦) ·

ويروى فيه من آخبار آسحق بن ابراهيم الموصلى قصة حياة طريفة كما يروى ثبتا بأسماء كتبه ومعظمها يدور حول الندماء والمنادمات وآداب المنادمات وصفاتها · فهم أنفسهم كانوا مجالا لكثير من القصص الملىء بالمواقف المرحة ، وحكايات الحب والغزل ، وحكايات الصعود والهبوط فى دنيا الفن ودنيا الناس جميعا ·

واذا كنا قد قلنا ان القصص الجنوبى يمثل بطولة الجنوب المتفوقة وموقف سيادة ملوك الجنوب القحطانية ، وان قصص الفتوة تمثل

مرحلة الانتماء العربى والتعرف عـلى مكونات بطولة العربى ، وقلنا ان القصص الدينى يمثل التبشير بالأديان والعقائد ، فاننا نسـتطيع أن نقول ان حكايات النوادر تمثل العمق الاجتماعى والمتبقيات السلوكية والقيم الأخلاقية للانســان العــادى فى تفاعله مع الأحــداث ومع عمقــه التاريخى ، ومع الموروث المعروف فى عالمه كله بحثا عن الرؤية الواضحة لمسيرته الانسانية ٠

ثالثا :

خاتمـــة

١ ـ موقف الدارسين

٢ ـ المنهج الفنى للرواية العربية

٣ ـ اثر البدايات فى الفن الروائى العربى

١ ـ موقف الدارسين :

نحسب أننا بعد هذا الحديث الموجز كل الايجاز نستطيع أن نطمئن الى وضوح الرؤية بالنسبة للأصول الأولى للرواية العربية فى تعددها وتنوعها وثرائها الخصب . ونحسب أيضا أنه يرد على الكثير من الشكوك التى حامت فترة زمنية طويلة على دور القصة كفن أدبى فى دنيا الفن القولى العربى ، وقد يذهب البعض الى أن الصياغة القصصية العربية تخالف الى حد كبير الصياغة التى تواضعنا عليها فى فن القصة ، ولكننا نحب أن نذكر أن الصياغة العربية ليست

واحدة ، فنحن نتدرج من الخبر الى الحكاية القصيرة ، الى الحكاية المتوسطة التى يتخللها الحوار وتبرز فيها الشخصيات محددة وواضحة ، كما تبرز فيها المواقف فى جدلية واضحة ومدلة، الى الرواية الطويلة ذات الأسلوب المتميز والخاص بها ، وصاحبة الفنية التى رسمتها لنفسها وسارت عليها بحيث أصبحت اطارا فنيا مميزا للرواية العربية الطويلة التى اصطلحنا على تسميتها بالسير الشعبية (١٠٧) ٠

كما نحب أن نذكر أن فن القصة نفسه فن غير ثابت الأطر فهو يتغير من عصر الى عصر ، ومن مدرسة فنية الى مدرسة فنية ٠ ولسنا مغالين اذا قلنا ان هناك اتجاها فى الفن المعاصر للعودة الى المناهج الفنية للسيرة الشعبية فى الكثير من مظاهره وسماته ، وان كان هذا يحتاج الى دراسة مقارنة تتسم بالجرأة وعمق النظرة ٠

كما أن صياغة الحكاية القصيرة كما نشاهدها فى فصول كثيرة من كتب الأخبار وكتب الأدب

وبخاصة عند الجاحظ وابن المقفع وفى ألف ليلة وليلة لا تختلف فى كثير عن شروط القصة القصيرة فى بداياتها ، وعند بعض المذاهب القصصية حتى الآن •

وقد آن الأوان أن نعترف بأن القصة كفن ، عمل شعبى بالدرجة الأولى • وانها ان أنكرت هذا أخرجت من الجوهر الذى يمدها بالعمق والحياة ، وان كان معظم الأعمال القصصية العربية يمكن أن نطلق عليها صفة الشعبية ، فهذا لا يجردها من قيمتها كفن قصصى ، بل لعله يثبت هذه القيمة ويؤكدها •

٢ ـ المنهج الفني للرواية العربية :

لا شك فى ظهور تأثير ثقافة العصر على القصة العربية فى أصولها الأولى ، كما لا شك فى ظهور تأثير المعتقدات القديمة وبقايا العبادات الوثنية ، والديانات السماوية السابقة

على الاسلام • ، ولكن لا شك أيضا فى تأثر كل هـذه المعطيات الموروثة بالحس الاسـلامى فى صورتها التى جاءتنا بهـا ، أو تناولهـا الرواة الاسـلاميون فأعادوا تقديمهـا لنا من منظـور لا يتعارض مع تعاليم الاسلام وفلسفته ، ان لم يتوافق معها ويسايدها •

والمسألة لاتتعلق ببقايا المعتقدات والطقوس، وانما هى تتعلق أساسا بالمنظور الاسلامى لمكان الانسـان فى الـكون • فالاسلام حـول صراع الانسان مع القـدر الظالم الغشـوم الى صراع الانسان ضد الشر والشيطان مؤيدا بقـوة الله والايمان •

وبهذا حسمت قصة المسرح بالشكل الاغريقى الأرسـطى تماما ، اذ لم يعـد هنـاك مكان للتراجيديات اليونانية ، وانما حل محلها البطل الذى ينتصر آخر الأمـر ، وأيا كانت قضـيته الشخصية ، وأيا كانت عقدته الدرامية ، وأيا كانت القوى التى تصارعه ، معنوية أم مادية أم

أسطورية • فهذا آخر الأمر سيحقق التوازن ثم الانتصار النهــائى • فالخير لابد له أن ينتصر على الشر •

وقد ســاد هــذا المفهوم الاسلامى الصياغات الأولى للقصص القــديم فى معظمها ، ثم ســاد مرحلة التأليف القصصى فى العصور الاسلامية سيادة كاملة تجلت فى أبطال الســير الشــعبية جميعا •

٣ ـ أثر البدايات فى الفن الروائى العربى :

نحسب أن هذه البدايات الأولى تعطى مهــادا صالحا لدراســة الأعمال الروائيــة والقصصية التى ظهرت بعد الاسلام ، والمنابع التى استقت منها عمقها الانسانى • فهذه البدايات قد عبرت عن الانسان العربى فى ثقافتــه الشــاملة التى استوعبت فن عصره بكل لغاته ، كما استوعبت صراعه ضد معوقات حياته كلها ، تلك المعوقات

التى كانت وليدة البيئة الجغرافية والبيئة الاجتماعية التى عاش فى ظلها ، وكانت أيضا وليدة صراع مجتمعه كله مع المجتمعات المحيطة به والمؤثرة فيه تأثيرا حيا وكاملا ، اما عن طريق الرحلة أو التجارة أو الغزو ٠

كذلك بلورت هذه البدايات مفهوم الشخصية العربية للمعطيات الخلقية وللمناحى السلوكية ٠ وحددت لهذا الانسان مجموعة القيم التى برزت فى أعماله القصصية من بعد بصورة أو بأخرى ٠

والصراع ضد العبودية أو ضد التفرقة الجنسية واللونية والصراع من أجل مكانة متساوية للمرأة في مجتمع الرجال ومكانة متساوية لكل الرجال فى المجتمع ككل ، موروث قديم من هذه البدايات الأولى التى تحدد أمام الدارس اليوم الأصول الأولى للرواية العربية التى نرجو أن يكون هذا البحث الموجز شارك الى حد ما فى جلائها وايضاحها ٠

● هوامش وتعليقـــات

(١) انظر دراسات كل من : أحمد أمين ، عبد اللطيف حمزة ، يحيى حقى ، على الراعى وعبد المحسن طه بدر ٠

(٢) انظر : على الراعى ، **المسرح المرتجل** ٠

(٣) انظر : فاروق خورشيد ، **الجذور الشعبية للمسرح العربى** ٠

(٤) انظر : طه حسين ، مستقبل الثقافة فى مصر (القاهرة : مطبعة المعارف ومكتبتها ، « ١٩٣٨ ») ٠

(٥) دعوات منصور فهمى وسلامة موسى وغيرهما ٠

(٦) انظر : سيد قطب : **الجاهلية الجديدة** ٠

(٧) انظر : أحمد أمين ، **فجر الاسلام** (القاهرة : مطبعة الاعتماد ، ١٩٢٨) ٠

(٨) شوقى ضيف ، **الأدب العربى المعاصر فى مصر** ، ١٨٥٠ ـ ١٩٥٠ ، مكتبة الدراسات الأدبية ٢٤ (القاهرة : دار المعارف ، « ١٩٥٧ ») ٠

(٩) المصدر نفسه ٠

(١٠) فاروق خورشيد ، **فى الرواية العربية** : عصر التجميع ، ط ٣ مزيدة ومنقحة (بيروت : دار العودة ، ١٩٧٩) ٠

(١١) انظر : عيسى بن هشام ٠

(١٢) انظر : ابراهيم رمزى ، **باب الشمس وباب القمر** .

(١٣) انظر : فاروق خورشيد ، « المقدمة » فى : جرجى زيدان ، **عذراء قريش** (الطبعة الأخيرة) .

(١٤) طه حسين ، **أحلام شهرزاد** ، سلسلة اقرأ ، ١ (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٤٣) ، توفيق الحكيم ، **شهرزاد** (القاهرة : مكتبة الآداب) ، (د٠ت) ، سيد قطب ، **القصر المسحور** ، وعلى أحمد باكثير ، **شهريار** (مسرحية) .

(١٥) نذكر هنا جهود كل من : أحمد رشدى صالح ، فوزى العنتيل ، شوقى عبد الحكيم ، محمد فهمى عبد اللطيف وغيرهم .

(١٦) انظر : فاروق خورشيد ومحمود ذهنى ، **فن كتابة السيرة الشعبية** : دراسة فنية نقدية للسيرة الشعبية عنترة بن شداد ، ط ٢ (بيروت : منشورات اقرأ ، ١٩٨٠) .

(١٧) انظر : فاروق خورشيد ، **أضواء على السير الشعبية** ، المكتبة الثقافية ، ١٠١ (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٦٤) .

(١٨) المصدر نفسه .

(١٩) انظر : عز الدين اسماعيل ، **المكونات الأولى للثقافة العربية وتطورها** ، سلسلة الكتب الحديثة ، ٤٥ (بغداد : وزارة الاعلام ، ١٩٧٢) .

(٢٠) انظر : أحمد أمين ، **ضحى الاسلام** ، (القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٣ ـ ١٩٣٦) .

(٢١) انظر : أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم ، **الفهرست** (القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى ، ١٣٣٨ هـ) .

(٢٢) انظر : فاروق خورشيد ، **أضواء على السير الشعبية** •

(٢٣) انظر : أحمد كمال زكى ، **الأساطير** ، اشراف شكرى محمد عياد ، المكتبة الثقافية ، ١٧٠ (القاهرة : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، « ١٩٦٧ ») •

(٢٤) انظر : فاروق خورشيد ، **الجذور الشعبية للمسرح العربى** •

(٢٥) انظر : محمود ذهنى ، **القصة فى الأدب العربى القديم** •

(٢٦) انظر : أحمد كمال زكى ، **الأساطير** •

(٢٧) انظر : عز الدين اسماعيل ، **المكونات الأولى للثقافة العربية وتطورها** •

(٢٨) انظر : حسين نصار ، **الشعر الشعبى العربى** ، سلسلة اللغة والآداب ، ٣ (بيروت : دار الرائد العربى ، ١٩٨٢) •

(٢٩) انظر : فاروق خورشيد ، **الجذور الشعبية للمسرح العربى** •

(٣٠) انظر : فاروق خورشيد ، **فى الرواية العربية : عصر التجميع** •

(٣١) انظر : محمود ذهنى ، **القصة فى الأدب العربى القديم** •

(٣٢) انظر : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ، **مقدمة ابن خلدون** ، تحقيق على عبد الواحد وافى ، (القاهرة : لجنة البيان العربى ، ١٩٥٧ ــ ١٩٢٦) •

(٣٣) انظر : أبو محمد عبد الملك بن هشام ، **السيرة النبوية لابن هشام** ، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا ، ابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى ، (القاهرة : البابى الحلبى ، ١٩٣٦) •

(٣٤) انظر : المصدر نفسه ، وهب بن منبه ، **كتاب التيجان فى**

ملوك حمير ، رواية أبى محمد عبد الملك بن هشام عن أسد بن موسى عن أبى ادريس بن سنان عن جده لأمه وهب بن منبه (حيدر آباد ، الهند : مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٤٧ هـ) ، وأبو محمد الحسن بن أحمد الهمذانى ، **الاكليل** ، حرره وعلق عليه نبيه أمين فارس (بيروت : دار العودة) •

(٣٥) انظر أحمد امين ، **فجر الاسلام** ، وطه حسين ، **فى الشعر الجاهلى** (القاهرة ، ١٩٦٢) •

(٣٦) انظر : محمد مندور ، **النقد المنهجى عند العرب** (القاهرة : دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٥) •

(٣٧) انظر : كارل بروكلمان ، **تاريخ الأدب العربى** ، ج ١ ، ص ٤٥ ، عز الدين اسماعيل ، **المكونات الأولى للثقافة العربية وتطورها** ، حسين نصار ، **الشعر الشعبى العربى** ، أحمد كمال زكى ، **الأساطير** ، وعلى البطل ، **الصورة الفنية فى الشعر العربى حتى آخر القرن الثانى الهجرى : دراسة فى أصولها وتطورها** (بيروت : دار الأندلس ، ١٩٨٥) •

(٣٨) انظر : فاروق خورشيد ، **فى الرواية العربية** ، **عصر التجميع** •

(٣٩) انظر : ابن منبه ، **كتاب التيجان فى ملوك حمير** •

(٤٠) انظر : فاروق خورشيد ، « **المقدمة** » فى : سيف بن ذى يزن ••• ط ٢ (القاهرة : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ » ، ج ١ و ٢ •

(٤١) انظر : **حكاية مضاض ومى** فى : ابن منبه ، المصدر نفسه •

(٤٢) انظر : محمد خفاجة ، **فى تاريخ الشعر اليونانى** ص ٩١ •

(٤٣) انظر : أرسطو طاليس ، **فن الشعر** ، مع الترجمة العربية

القديمة وشروح الفارابى وابن سينا وابن رشد عن اليونانية ، ترجمة عبد الرحمن بدوى (القاهرة : مكتبة النهضة العربية ، ١٩٥٣) ، ص ١٤ .

(٤٤) انظر : محمد مندور ، **فن الشعر** ، المكتبة الثقافية ، ١٢ (القاهرة : دار القلم ، « د.ت ») .

(٤٥) انظر : ابن منبه ، **كتاب التيجان فى ملوك حمير** ، عبيد بن شرية الجرهمى ، **أخبار اليمن وأشعارها وانسابها** (حيدر آباد ، ١٣٤٧) وهو موجود بذيل كتاب التيجان فى ملوك حمير لأبى محمد عبد الملك ابن هشام ، وابن هشام ، السيرة النبوية لابن هشام .

(٤٦) انظر أيضا : الهمذانى ، **الاكليل** .

(٤٧) انظر : ابن جبير ، **عجائب الهند** ، محمد بن جزى الكلبى ، **رحلات ابن بطوطة** ، وأبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد (بغداد : المكتبة العصرية ، ١٩٣٨) .

(٤٨) ابن منبه ، **كتاب التيجان فى ملوك حمير** .

(٤٩) انظر : ابن خلدون ، **مقدمة ابن خلدون** .

(٥٠) أو جاءت فى سياق السرد الروائى لأخبار التاريخ ، حيث تمتزج روح القص والابتكار بالحقيقة المعروفة .

(٥١) انظر : فاروق خورشيد ، **فى الرواية العربية** : عصر التجميع

(٥٢) انظر : ابن منبه ، **كتاب التيجان فى ملوك حمير** .

(٥٣) المصدر نفسه ، ص ٧٤ وما بعدها (طبعة صنعاء) .

(٥٤) ابن شرية الجرهمي ، **اخبار اليمن واشعارها وانسابها** ، ص ٣٢٦ (طبعة صنعاء) ٠

(٥٥) انظر : فاروق خورشيد ، **الجذور الشعبية للمسرح العربى** ٠

(٥٦) انظر : ابن النديم ، **الفهرست** ٠

(٥٧) انظر : أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويرى ، **نهـــاية الأرب فى فنون الأدب** ، ط ٥ ، ج ١٢ ٠

(٥٨) انظر : المصدر نفسه ، عمر الدســوقى ، **أيام العرب** ، وأبو الفضل أحمد بن محمد الميدانى ، **مجمع الأمثال** ٠

(٥٩) النويرى ، **نهاية الأرب فى فنون الأدب** ، ج ٥ ٠

(٦٠) المصدر نفسه ٠

(٦١) انظر : محمود ذهنى ، **القصة فى الأدب العربى القديم** ٠

(٦٢) ابن النديم ، **الفهرست** ، ص ٣٢ ٠

(٦٣) المصدر نفسه ص ٣٣ ٠

(٦٤) انظر : أبو اسحق أحمد بن محمد الثعلبى ، **قصص الأنبياء المسمى بالعرائس** (القاهرة : المطبعة والمكتبة السعيدية ، « د٠ت ») ٠

(٦٥) انظر : فاروق خورشيد ، **الجذور الشعبية للمسرح العربى** ٠

(٦٦) النويرى ، نهـــاية الأرب فى فنون الأدب ، ج ١٣ ، ص ٦٢ و ٦٣ ٠

(٦٧) المصدر نفسه ، ج ١٤ ٠

(٦٨) ابن خلدون ، **المقدمة** ٠

(٦٩) انظر : برترام توماس ، **البلاد السعيدة** ٠

(٧٠) المصدر نفسه ٠

(٧١) انظر : عبد المجيد عابدين ، **بين الحبشة والعرب** (القاهرة : دار الفكر العربى ١٩٥٠) ٠

(٧٢) انظر : حكاية غزو مالك بن فهم فى هجرته اليمنية للجنوب الشرقى للجزيرة فى : **سالم السياج ، عمان عبر التاريخ ، الأزكوى ، كشف الغمة : الجامع لأخبار الأمة** ، سعيد عاشور ، محقق ، **تاريخ أهل عمان** ، أبو عبد الله القلهاني ، **الكشف والبيان** ، تحقيق سيدة الكاشف ، وغيرها ٠٠ انظر أيضا غزو الفرس لليمن فى : ابن هشام ، **السيرة النبوية** لابن هشام ، وغيرها ٠

(٧٣) انظر : المسعودى ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، ج ٢ ٠

(٧٤) انظر : الهمذانى ، **الوشى المرقوم** ٠

(٧٥) ابن هشام ، السيرة **النبوية لابن هشام** ٠

(٧٦) عبد الحميد يونس ، **الأدب الشعبى** ٠

(٧٧) انظر : شوقى ضيف ، **المقامة** ، **فنون الأدب العربى ، الفن القصصى** ، ١ (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٤) ٠

(٧٨) القرآن الكريم ، « سورة الرعد » الآية ١٧ ٠

(٧٩) القرآن الكريم « سورة ابراهيم » الآية ٢٤ ٠

(٨٠) القرآن الكريم « سورة ابراهيم » الآية ٤٥ ٠

(٨١) الميدانى ، مجمع الأمثال ، ج ١ ٠

(٨٢) المصدر نفسه ٠

(٨٣) انظر : قصة سطيح فى : النويرى ، **نهاية الأرب فى فنون الأدب** ، ج ٣ ، وتنبؤه بانهيار ايوان كسرى ، انظر أيضا قصة نبوءة انهيار سد مأرب فى : ابن هشام ، **السيرة النبوية** لابن هشام .

(٨٤) انظر : النويرى ، المصدر نفسه ، ج ٣ .

(٨٥) **قال تعالى : (وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى ان ينفعنا او نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تاويل الأحاديث والله غالب على امره ولكن آكثر الناس لا يعلمون ، ولما بلغ** أشده آتيناه **حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين)** القرآن الكريم ، « سورة يوسف » الآيتان ٢١ ، ٢٢ .

(٨٦) انظر : ابن النديم ، **الفهرست** .

(٨٧) انظر : « الفن الثانى » فى النويرى ، **نهاية الأرب فى فنون الأدب** ، ج ٣ .

(٨٨) انظر : المسعودى ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، ج ٢

(٨٩) انظر : ابن النديم ، **الفهرست** .

(٩٠) المصدر نفسه .

(٩١) كحرب داحس والغبراء ، وأبحر عنترة .

(٩٢) انظر : كمال الدين محمد بن موسى الدميرى ، **حياة الحيوان الكبرى** ، وبهامشه عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات لزكريا ابن محمد بن محمود القزوينى **(القاهرة : المطبعة الميمنية ١٣٠٥ هـ)** ، وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، **الحيوان** ، تحقيق عبد السلام محمد هارون .(القاهرة : مكتبة مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٣٨ ـ ١٩٤٥) .

(٩٣) انظر : **« الفن الثالث »** فى : النويرى ، **نهاية الأرب فى فنون الأدب** ، (فى الحيوان الصامت) .

(٩٤) انظر : ابن النديم ، **الفهرست** •

(٩٥) انظر النويرى ، **المصدر نفسه** •

(٩٦) انظر : فى هذه القصة وغيرها ، ابن هشام ، **السيرة النبوية لابن هشام** ، أبو المنذر هشام بن محمد الكلبى ، **كتاب الأصنام** ، **تحقيق** أحمد زكى (ليبزيغ : هراسوفيتش ، ١٩٤١) ، والمسعودى **مروج الذهب ومعادن الجوهر** •

(٩٧) انظر : سيرة **ذات الهمة** ، **الف ليلة وليلة** ، **سيرة الظاهر بيبرس** ، وسيرة عنترة فى **اجزائها الاخيرة** •

(٩٨) انظر : **سيرة حمزة البهلوان** ، **سيرة فيروز شـاه** ، **وحكاية مالك** بن فهم فى : السياج ، **عمان عبر التاريخ** •

(٩٩) انظر : **سيرة سيف بن ذى يزن** ، وابن هشام ، **السيرة النبوية لابن هشام** •

(١٠٠) انظر : ابن منبه ، **كتـــاب التيجان فى ملوك حمـــير** ، **والمسعودى** ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** •

(١٠١) انظر : الهمذانى ، **الاكليل** •

(١٠٢) انظر : الثعلبى ، **قصص الأنبياء المسمى بالعرائس** ، **ابن منبه** ، **كتاب التيجان فى ملوك حمير** ، والمسعودى ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** •

(١٠٣) انظر : المسعودى ، المصـــــدر نفسه ، والميدانى ، **مجمع الأمثال** •

(١٠٤) انظر : ابن هشام ، **السيرة النبوية** لابن هشام •

(١٠٥) انظر : **سيرة سيف بن ذى يزن** •

(١٠٦) انظر : ابن النديم ، **الفهرست** •

(١٠٧) انظر : فاروق خورشيد ومحمود ذهنى ، **فن كتابه السيرة الشعبية** : دارسة فنية نقدية للسيرة الشعبية عنترة بن شداد •

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٦٢٧ / ١٩٩٢

ISBN — 977 — 01 — 3100 — 8

٥١

يحاول هذا الكتاب أن يبحث عن الأصول الأولى للرواية العربية فى تعددها وتنوعها وثرائها الخصب ، ويحاول أن يبرز دور القصة كفن أدبى لعب دوراً هاماً فى إثراء الفن القولى العربى .. رداً على مقولة مستقرة عند الدارسين والنقاد تنفى معرفة الأدب العربى القديم بالفن القصصى ، وتنفى وجود هذا الفن أصلاً فى دنيا الإبداع العربى الأدبى الموروث .

فقد آن الأوآن لأن نعترف بأن القصة كفن أدبى عرفها الأدب العربى كما عرفها آداب الشعوب الأخرى ، إلا أن ظروف الحياة العربية أدرجتها تحت الأبداعات الشعبية ولم تعترف بوجودها كفن أدبى قصصى إلا فى عصر متأخر جداً ، بل لعلها مازالت تحتاج إلى هذه الدراسة وما سبقها من دراسات ، وماسيليها من جهود للدارسين لتتأكد عندها هذه المقولة النقدية الهامة .

الكتاب القادم :
مقدمة فى القصة المصرية القصيرة
بقلم عبد الرحمن عوف

١١٠ قـرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب